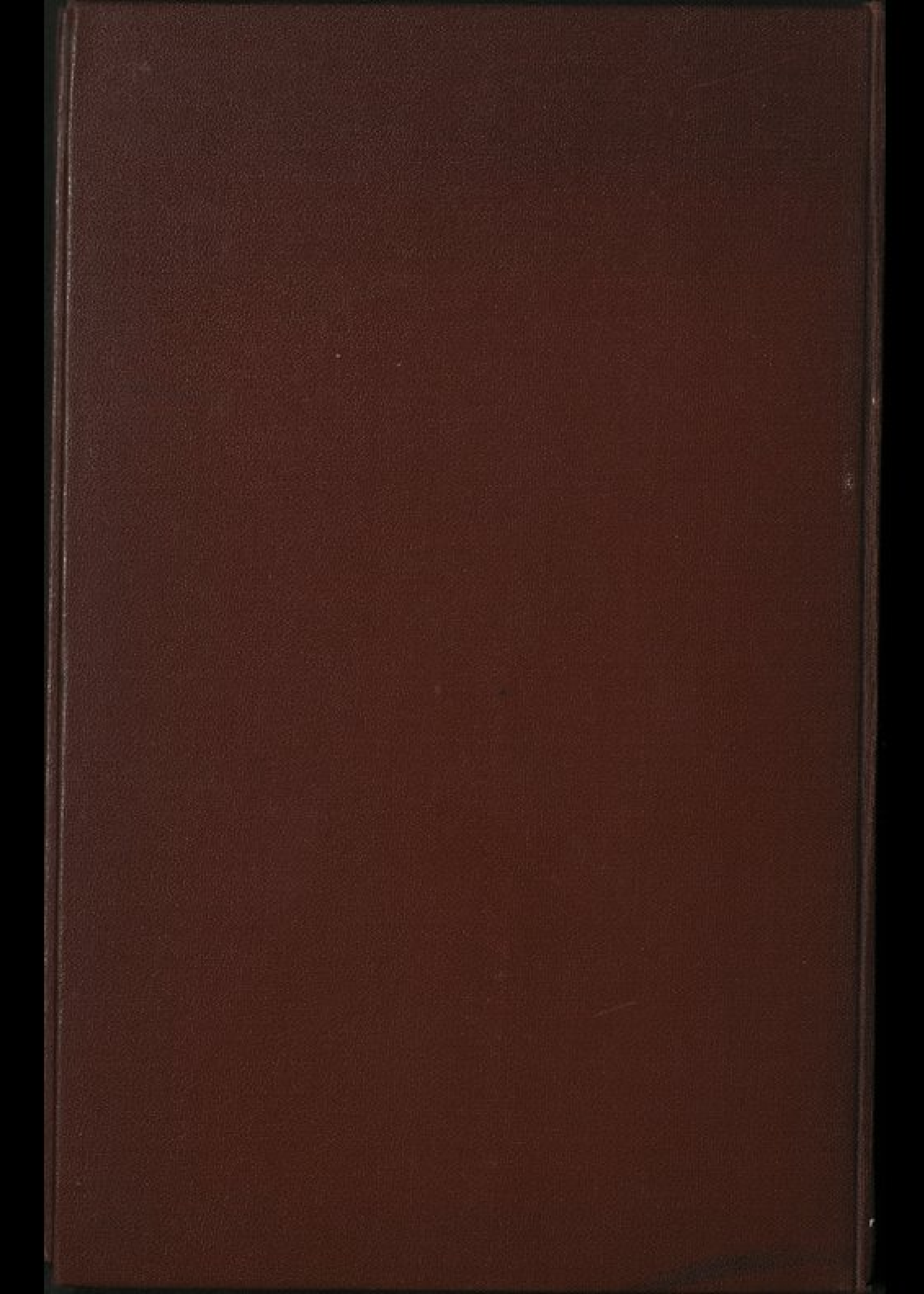
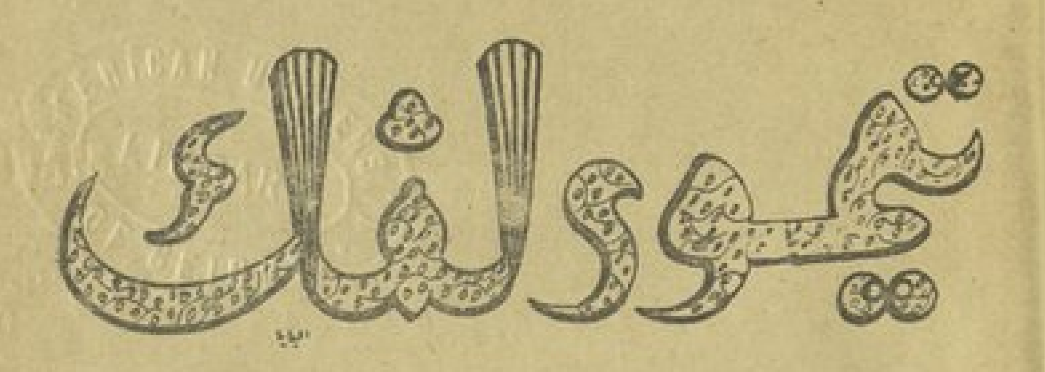


مطبوعات المكتبة الاهلية

عني بطبعه ونشره

محمد جمال

صاحب المكتبة الأهلية



للكاتب الانكليزي :

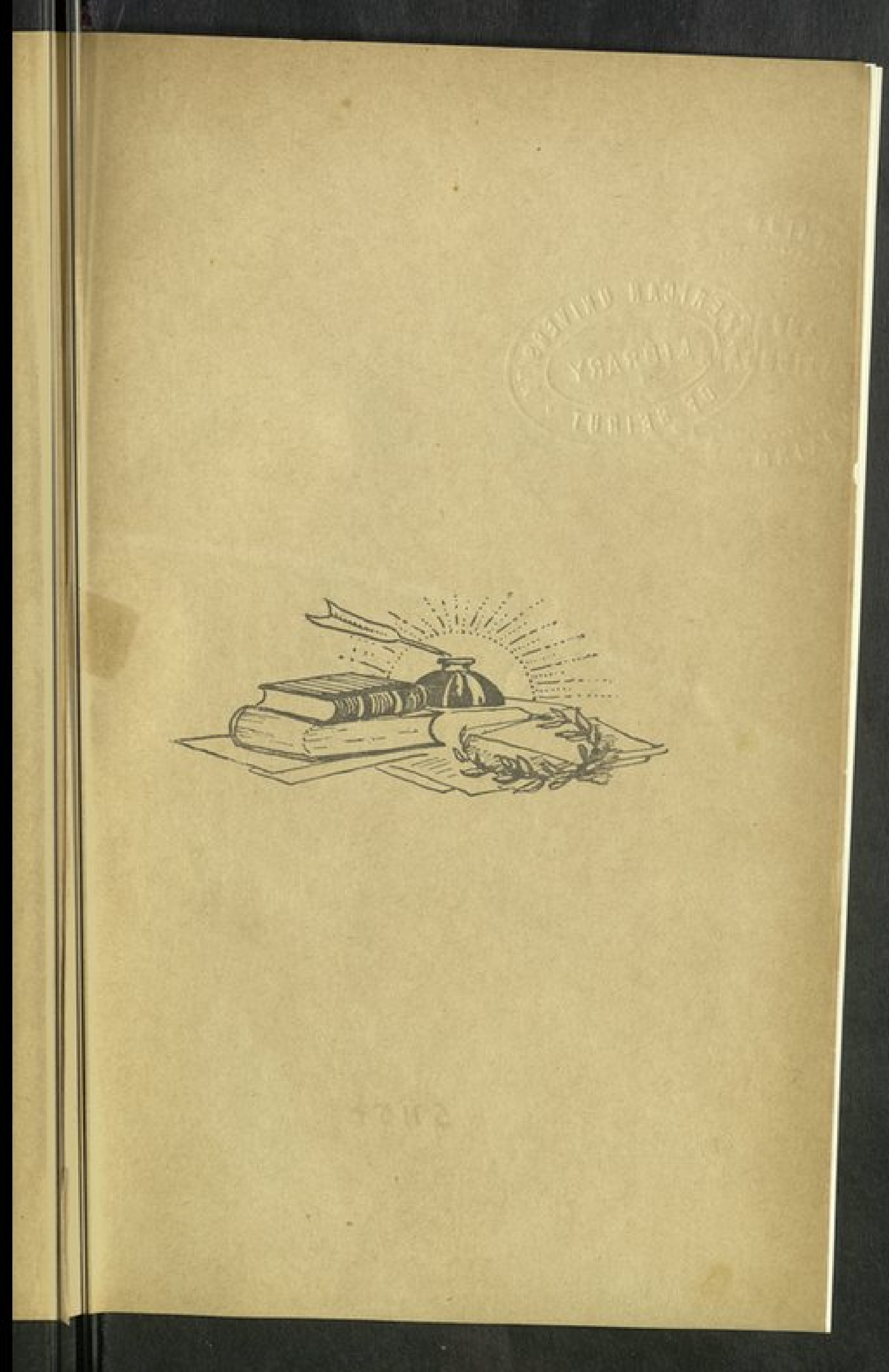
هارولد لامب

عربه عن الانكليزية :

عمر ابو النصر

— الطبعة الاولى —

المطبعة الوطنية * بيروت — سنة ١٩٣٤



بسم الله الرحمن الرحيم

ليس التبسط في تاريخ تيمور من الخفة واليسر بقدر ما يظن الكثيرون ، ولا هو رجل تبسط المؤرخون في اخباره وحوادثه وفتوحاته وامبراطوريته ، بقدر ما تبسطوا في حوادث غيره واخبار سواه ، ذلك ان الناس في عهده وبعد عهده كانوا احد رجلين ، اما عربي اتبع ما افتى به العلماء من كفره وتزندقه بسبب ما نكب به البلاد الاسلامية من احراق وتدمير وهدم وسفك دما ، او آخر لبست تهمه اخبار رجل عاش في ماضيات الايام ، واستقام له الامر في مكان بعيد الشقة ، سحيق العمران .

ولقد وقفنا نحن من اخبار تيمور وفتوحاته موقفاً وسطاً ، فلا نحن ذهبنا نغرق في تمجيده وامتداحه وتبجيله كما فعل بعض مؤرخي الفرنجة ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب ، ولا رحنا نروج لكفره وزندقته كما فعل مؤرخو العرب ، فخرج كتابنا هذا وهو اقرب ما يكون الى الحقيقة التاريخية من الكتب التي سلفت والاخبار التي سبقت .

ولقد رحنا نعني في هذا الكتاب كل العناية باخبار تيمور وقومه ، نصور عاداتهم ونصف اخلاقهم ، ونتبسط في فتوحاتهم واستبحار عمرانهم وانبساط سلطانهم بالقدر الذي يسمح به كتاب

محدود الصفحات ، مقيد الاوراق ، وتوفرنا الى العناية باخبار البلاد العربية وفتوحات تيمور فيها توفراً دفعتنا اليه الحكمة ، وهدتنا اليه المصلحة ، لأنه ليس يصح من المعرب العربي ان يتقيد بما تقيد به المؤلف الانكليزي من القصد الكبير في تناول اخبار البلاد العربية وفتوحات تيمور فيها ، ولا نعلم سبباً لهذا التجاهل الغريب ، الا ما يعتقده مؤرخو الفرنجة من ان البلاد العربية في عهد تيمور لم يكن لها من الشأن وخطورة السلطان بحيث يصح ان ترصد لها الصفحات في كتب التاريخ واخبار السير .

***

ومؤلف هذا الكتاب الاستاذ (شارل لامب) تناول حديث هذه الفتوحات بما يقرب من سطر واحد ، فلما اشرف على معركة انقره تبسط في وصفها وامعن في بحث مواقف الجند ومواطن الرماة فيها وارصد لها فصلاً برمته يجده القارئ في مكانه من هذا الكتاب ، وهو كما قدمنا لم يرصد لغزو تيمور البلاد العربية واحراق حلب ودمشق ما يزيد عن سطر واحد ، وقد اردنا الاسراف في الاشارة الى هذه الظاهرة ليعلم ابناء العربية ان شأنهم ضئيل وامرهم قليل ، حين لا تكون لهم حضارة ناهضة ، وسلطان موفور الكرامة ، وعمران منبسط الارجاء .

واما نحن فقد تبسطنا في فتوحاته العربية تبسطاً نعتقد بحق اننا

لم نترك معه امراً قليلاً او حدثاً جليلاً دون ان نتوفر على بحثه ونتخير له مكاناً رحباً في الفصل الخاص الذي عقدناه له في هذا الكتاب وتناولنا فيه ما أصاب البلاد العربية في عهد تيمور من احراق وتدمير وسلب ونهب وخسارة في الانفس والاموال. وكل املنا ان يكون لهذا الفصل التأثير المقصود عند ابناء العرب فيعلم كبارهم وفتيانهم انهم مغلوبون على امرهم ما كانوا فرقاً واحزاباً ، وان تيمور ما كان يستطيع لبلدانهم وحضارتهم محقاً وهدماً لولا انقسام امرائهم ، وتضعضع كيانهم وتهدم روحيتهم ، وان واجب شباب العرب مكتوب في حقول هذا الكتاب ، مسطور في صفحاته ، منشور في مختلف ابحاثه ، فالذئب انما يقتحم الغنم الشاردة ، وليس له سبيل الى الجماعة الموحدة الصفوف ، القوية الايمان ، الشديدة التضحية ، الابية النفوس.

فيرى القاري والحالة هذه ان الفصول التي تبسطنا فيها في فتوحات تيمور العربية هي من قلم المعرب لا المؤلف ، وكذلك الشأن في الفصول الثلاثة الاخيرة عن تاريخ المغول قبل تيمور وبعده وعن اقتحام الاسلام للبلاد المغولية ، وقيام امبراطورية تيمور على الدم وقد رأينا الحاجة ماسة الى انشاء هذه الفصول ليخرج القارئ من هذا الكتاب وقد ألم بتاريخ النهضة المغولية كل الالمام.

***

هذا كتاب كما قدمت تبسطت في فصوله العربية تبسطاً دفعني اليه ما القي في روعي من ان هذه النكبات التي منيت بها البلاد العربية في عهد تيمور واجدة مكاناً ليناً في نفوس بني قومي، باعثة فيهم قوة من ضعف، وعزة من ذل، وان واجب اصحاب السماحة من الشيوخ خطير في ما يتعلق ببث هذه الروح بين عامة الناس وكبارهم، وفي الترويج للروح الدينية التي لا ترضى للمؤمن بذل، واخص بالذكر منهم صاحب السماحة العلامة الجليل النبيل الشيخ سعيد بك اياس، الذي يسرني ان اهدي كتابي هذا اليه بعد ان رأيته في هدوءه ورزانته وعلمه اكثر عملاً، وامضي نفعاً، واسرع في الاحسان يداً من اولئك الذين كثرت ضوضاءهم، وقل احسانهم

وازيد على ذلك انه في علمه الواسع وذكائه الساطع، وحديثه الرائع، فردٌ بين قومه وفي بلده، اطال الله عمره، ونفع شباب البلد بعلمه.

عمر ابو النصر

تمهيد

اني محدثك عن رجل اراد لخمسماية وخمسين سنة خلت ان يكون ملك العالم، فما اراد امراً ولا مشى الى غرض الا استقام له فيه ما يحاوله من نجاح وفلاح . اما هذا الرجل فيدعى تيمورلنك .

لقد كان في اول امره رجلا عادياً من نبلاء قومه يملك ارضاً صغيرة وماشية قليلة وكان يقيم في تلك الارض الواقعة بين ايران والصين، والتي يسميها العرب «بلاد ما وراء النهر» وهي ارض ظهر فيها من الملوك الفاتحين عدد كثير .

ولم يكن تيمور ابن ملك كالاسكندر الكبير ولا كان ابن زعيم قبيلة كبيرة كجنكيز خان، وقد كان لدى الاول قومه من اليونان والاغريق، وكان لدى الثاني قبائل المغول، اما تيمور فقد كان وحده لا تمتد زعامته الى جماعته، ولا يضطرب سيفه في قبيلة من القبائل فراح يخلق قوماً ويؤسس مملكة ويمكن لنفسه في الارض بما لا يحلم به الملوك الفاتحون .

ويتمكن هذا الرجل الغريب من الغلبة على نصف الارض المعروفة في عهده، فتتناثر امام كتائبه الجحافل، وتنهار تحت اقدامه المدن والمزارع، فاذا راح يقيم ما هدمه ودمره، فعل ذلك

وفاقاً لهواه ورأيه ، لا يمتد تفكيره الى الوان العمارة في عهده ، ولا يحاول ان ينتظم لهما انتظم لغيره من قبله ·

كانت بلاده طريق التجارة بين آسيا واوربا ، فكانت تتجمع في خزائنه ثروة الممالك ينفقها كما يشاء ، ولقد راقه يوماً ان يجعل من سفوح الجبال مراتع للهو والمرح فكان امره مشهوداً في مثل شهر واحد ، وجرب في حياته ان يخلق العالم وفاقاً لمشيئته ورغباته ، فاستقام له ما اراده ، وما تذكر مملكة تيمورلنك الا باسمه ، ولا يعرف من امرها الا انه ربها وخالقها ، ومن الحق ان نذكر ان معلومات السلف عنه كانت قليلة سقيمة ، وان احداً منهم لم يوفق الى البحث في تاريخه وشخصه ، ولا بما تستحقه هذه الشخصية الهائلة من وصف دقيق صادق ، ولا كيف كانت تتحرك كتائبه تحرك الجراد في سيرها ومرحالها ، حتى تقف على ابواب اوربا ، وهو قائم في خيمته الحريرية وحوله النيران تضيء ماحوله من مغاور الطرق والمفاوز ·

اما آسيا فقد عرفته كل المعرفة ، فخرت به حيناً وضاقت بافعاله واعماله حيناً آخر ، ووصفه اعداءه بالذئب يلتهم ما حوله ، واطلق عليه مريدوه وانصاره لقب الاسد الفاتك ، واما الشاعر الانكليزي ملتون ، فقد رأى في صورته صورة الشيطان نفسه ، فراح يملأ بها شعره وقصيده

ولكن المؤرخين وقفوا من تيمورلنك موقفاً فيه شيء من

الصمت والذهول ، ضاقوا به وبافعاله وفتوحاته ذرعاً ثم كان من الصعب عليهم ان يضعوه في مكان معين ، لم يكن من ابناء الملوك ولا كان له عرش ، فخلق واحداً وانشأ ملكاً ضخماً ، كان بعيداً في الصحراء وفي اقصى الارض ، فخلق امبراطورية تشبه الامبراطورية الرومانية في عزها ومنعتها ، ولما راح يبني لم يعتمد في البناء على لون معروف في زمنه ، اعجبته قبة رآها في دمشق ، فانشأ على مثالها ، وما تاج ماهال — هذه التحفة الفنية الرائعة القائمة في الهند غير اثر من آثاره ، وان كان الذي بناها احد حفدته من بعده .

لقد تناول المؤرخون بشيء من التفصيل كثير ، اوربا في هذا العهد ، فوصفوا فينيس وكيف كان يحكمها مجلس العشرة وكيف كان (ريازي) كموسوليني في العهد الحاضر ، وبترارك يؤلف ويكتب ، وحرب المئة سنة تلتهم الاخضر واليابس ، واوربا طفلة تحاول ان تلقي عن ظهرها غبار العصور المتوسطة ، ولم تكن النهضة ولا عصر الانبعاث قد اشرق ، فكانت اوربا تطلق بصرها نحو الشرق تطلب منه الحضارة والكماليات والحرير والحديد والفولاذ .

وكذلك الذهب والاحجار الثمينة كانت ترد من آسيا ، وكانت فينيس وجنوى قد اصبحتا بلدين كبيرين ، وكذلك كان شأن قرطبة واشبيلية ، واما قصور غرناطة فحدث عنها ولا حرج

وكانت القسطنطينية نصف شرقية ، وكان العالم المعروف في هذا العهد شرقياً اكثرمنه غربياً ، لان الحدود بين اوربا واسيا لم تكن محدودة كما هو الحال اليوم ، بل كانت الحدود حقاً في ذلك العهد تقوم على مقربة من ايطاليا ، وما كانت اوربا في الواقع غير مستعمرة شرقية ، تغمرها الفوضى ويخيم عليها الفقر والتعاسة .

والواقع اننا نعرف الشيء الكثير عن حالة اوربا في هذا العهد واما عن تيمورلنك ، وما كان يريده من حكم العالم فان ما نعرفه قليل ضئيل ، لقد كان الاوربيون في هذا العهد ينظرون الى تيمورلنك نظرة غريبة خاصة ، كان يظهر لهم شخصاً فوق الطبيعة له قوة الابالسة ، ولما اقترب من بلادهم اسرع ملوكهم يخطبون وده ويرسلون اليه الرسل والكتب بعنوان « الى التامبرالان ملك التاتار »

هذا هنري الرابع ملك انكلترا الذي كان يحارب زعماء الجرمان بعيداً عن عاصمة ملكه كتب الى تيمورلنك يهنئه بانتصاراته ، وهذا شارل السادس ملك فرنسا بعث بتقديره واعجابه الى تيمورلنك امير التاتار . واما امبراطور القسطنطينية فقدطلب مساعدته ، وفعل مثل ذلك كثير من الامراء والقواد وهذا دليل على عظمة تيمورلنك في ذلك العهد وما اثارته فتوحاته الهائلة من الخوف والاجلال والاكبار .

وارسل الدون هنري ملك كستيل في اسبانيا نبيلا من رجاله

الى تيمور فلحق الرسول بتيمورلنك حتى وصل الى سمرقند عاصمته ، وراح يكتب عن مشاهداته ، وكيف ان تيمور غلب ملوك الهند والصين وفارس وما بين النهرين ، ومشى جيشه الى حلب ودمشق فهدمهما ، وحارب ملك الترك بيزيد فاسره وكيف ان الارض في آسيا كلها قد دانت له ، وكيف ان الملوك والامراء والعظماء يقفون في بابه ، ومندوبو الدول من كل صقع وبلد يزدحمون للتشرف بطلعته ، وكيف انه كان يعاملهم جميعاً معاملة رقيقة ، لا فرق في ذلك عنده بين كبيرهم وصغيرهم لان السمك الصغير له حق في الحياة في هذا البحر الخضم الذي يسيطر عليه ويحكم فيه بما يشاء ويريد .

واذا راح المؤرخ يعدد ملوك هذا الزمن الذي كانت فيه شخصية تيمورلنك بارزة ظاهرة وجد تيمورلنك قليل الاثر فيه ، فلا يكتب عنه المؤرخون الا بمقدار ، ولا يشاد بذكره ووقائعه الا في شيء من العسر كثير ، بل لعلك واجد في هذا القليل اثر الخوف الذي كان يغمر المؤلف وهو يحاول ان يتناول تاريخ هذا الشخص الغريب ببعض التبسط والتفصيل .

ولكن تيمورلنك يظهر لنا بعد هذه القرون الخمسة آخر الملوك الفاتحين ، ومن اتى بعده لم يوفق الى شق غباره ، هذا نابليون انتقل

الى ربه منكسراً فاشلا ، وهـذا بسمارك لم يوفق الا في التنظيم السياسي لمملكة واحدة ، واما تيمور فقد انشأ الممالك ، وعرف الانتصار في كل ما اقدم عليه من عمل ، ولكي نتفهم حياة هذا الرجل وما قام به من احداث وفتوحات ، علينا ان نعود الى تلك الايام التي عاش فيها تيمور ، نصف قومه وجماعته وانصاره واعدائه ، وعلينا ان نضرب في الارض الى ما وراء القسطنطينية فبلاد فارس فخراسان الى حـدود الصين حيث تقوم بلاد ما وراء النهر ، اما العهد الذي تبدأ فيه قصتنا فسنة ١٣٣٥ واما المكان فنهر جيحون !!!



١

ماوراء النهر

يخترق الحدود بين ايران وبلاد ماوراء النهر، نهر يسميه سكان ما وراء النهر (نهر الامو) (نهر جيحون) ويذهب بعضهم الى القول بانه احد الانهر الاربعة التي تصدر من الجنة وتصب في الارض

والسماء في بلاد ما وراء النهر صافية رائعة تطلق شمسها على الارض فتخلق الحياة وتجدد القوى وتبعث النور، فينطلق الزرع والنبات من مقره مزهراً فخوراً فترعاه الماشية، وتنطلق معه وهو يسير سبيله على ضفاف النهر وسفوح الجبال، فتظهر الارض خضراء رائعة الجمال، فتانة المناظر.

وبلاد ما وراء النهر تقع في اقصى حدود الفتوحات الاسلامية تنام على حدود الصين، فلا يصل اليها المسافر الا بعد جهد وعناء كثير، وعليه ان يسافر اليها شرقاً فيقطع الشام فالعراق ففارس فخراسان فما وراء النهر ....

ولكن الوصول الى هذه البلاد شديد الخطر، بعيد الشقة، صعب المسالك، ضيق المفاوز، فقد يقع على المسافر احياناً ان يسير

في مفازة ضيقة بحيث لا يستطيع اكثر من رجلين ان يمرا بها دفعة واحدة ، وقد علت فوقه الآكام والجبال بما يقرب من سمّاية من الاقدام ، وكان سكان البلاد يسمون هذه الآكام القائمة — ابواب الحديد — يريدون بذلك الدلالة على مناعتها وقوتها ، وانها تقيهم شر الاعداء ونوازل الغزاة ٠

ويقف على مقربة من هذه الآكام في كثير من الاحايين جماعة من التتر وقد استندوا الى رماحهم يمعنون النظر في المسافر يتعرفون هيئته وشخصيته ٠

فاذا انتهى المسافر من هذه المفاوز وقع على ما يسميه اهل البلاد « بالمدينة الخضراء » تجري حولها خضرة وماء كثير واشجار يانعة وزراعة ناجحة ، وتقوم فيها منارات المآذن ، وقبب العبادة ، ومنازل الناس من سكانها الآمنين ٠٠٠

ولد تيمورلنك في المدينة الخضراء ، وكانت اليه محببة ٠٠ وكان منزله يقوم من اخشاب وطين مسور بجدران اربعة وفي وسطه حديقة ، كثيراً ما كان يجلس اليها يستمع الى الفلاحين ينشدون ويهزجون في عودتهم من الحقول ، والى نداء المؤذن يدعو الناس الى الصلاة ٠٠٠٠

وكثيراً ما كان يقصد داره جماعة غريبة اشكالهم وهيئآتهم ولهم لحى كبيرة ، فيتحدثون امامه بحديث القوافل في حلها وترحالها

ولكن حديث الحرب والمعارك كان اغزر والى قلوبهم اقرب ، لان الحرب كانت تسير سبيلها حولهم وعلى مقربة منهم وفي الوديان المنبسطة حول المدينة الخضراء .

والواقع ان تيمور كان كثير العناية في ملابس القوم وزينتهم ، وسلاحهم ، وكان كثيراً ما يسأل بعضهم عن السلاح الذي يحملونه وكيف يستعملونه وشأنه ومصايره ، واذا رأى قوساً مقطوع الوتر كرر الحديث واعاده ، ثم اعاده وكرره ، كأنما هو يحاول ان ينطبع في ذاكرته ما يلقى عليه من كلام ، وما يستمع له من ايضاح .

ولما بلغ اشده ودفع اليه اهله فرساً تقله في حله وترحاله مضى يثير الدهشة بين اترابه وزملائه بما يظهره من تفنن وبراعة في ركوب الخيل ودقة الرمي في القنص والصيد ، واعجب من ذلك انه كان ينصرف الى هذا اللهو مع فتيان الحي في اول عمره ، وهو دائم الاطراق كثير التفكير ، قليل الضحك .

ولعل مرد ذلك ان احداً من اهله لم يكن يجلس اليه في ساعات فراغه ، فقد توفيت والدته وهو صغير ، وراح والده الذي كان شيخ احدى قبائلها البارلاس من التاتار يصرف اكثر وقته يعاشر الفقهاء من رجال الدين المسلمين ...

والفتى في المنزل وحده ، مع اثنين من الخدم وبعض الكلاب

لان والده وان كان شيخ قبيلة ، ويمتد بالنسب لاجداد من اهل الشرف والنبل الا انه كان فقيراً لا يستطيع ان يملأ بيته خدماً وخيلا ! !

فكان تيمور يجلس لنفسه على سطح المنزل يطلق بصره الى طريق سمرقند يشاهدالقوافل من الاعاجم والعرب تحمل ما في بلادها من صناعات وملابس الى حيث تجد له راغباً ليناً كريماً ، وكثيراً ما كان يترك مقره الى حيث اصحاب القافلة يستمع حديثهم واخبارهم عن سمرقند وغيرها من البلاد التي كانوا يشاهدونها في طريقهم ، واذا ما عاتبه والده على جلوسه مع هؤلاء الذين لا ينتظمون معه نسباً ونبلا قال يحاوره في شيء من السذاجة :

ليس للمرء غير طريقه . . .

يريد بذلك ان للمرء طريقاً عليه ان يسلكه ، وان ما هو مقدر عليه واقع لا محالة ! !

٢

رجال الحوذة

كان الوادي الذي يقوم حول « المدينـة الخضراء » وماحوله من اراض ومزارع لعشيرة (بارلاس) وليس يعني ذلك انه لهم بقوة الفتح او غـير ذلك بل هو هدية – الخـان – الذي يقيم وراء الجبال الى احد اجدادهم ، فاحتفظ به ابناؤه من بعده ، ولن يبرح في يدهم ما كانوا ذوي قوة وبطش ، فان اختلفوا فيما بينهم وذهب ريحهم تملكه سواهم وبسط يده عليه غيرهم ، وكان الوادي كثير الخير غزير الماشية ، كثير الشجر .

وكان (البارلاس) من التاتار ، اقوياء الجسم شديدي العضـل قد لوحت الشمس وجوههم ، وكانوا لا يتحركون من منـازلهم ومواطنهم الا عند الحاجة الملحة فان تحركوا راحوا يتهادون في مشيتهم ، لا ينظرون الى خلفهم الا ان يكون القادم من كبارهم ورؤسائهم .

وكانوا يركبون خيلا تعودت السير في سفوح الجبـال ، فيجعلون سروجهـا من الحرير المطرز ، ويضعون في اعنتها بعض

الفضة ، وكان الفقير من بين هؤلاء التاتار لا يذهب الى المسجد الا راكبا على حصانه ، وكانوا يحبون خيامهم حباً غريباً لما يعتقدون فيها من امارات الجرأة وعدم الخوف ، وكانوا يقولون ان الجبان يبني منزله من الحجارة خوفاً وجزعاً ولكي يختبي فيه عند الحاجة ، وليس يعني ذلك ان احداً منهم لم يكن يملك منزلا ، فقد كانت هناك منازل لبعضهم في المدينة ، تقيم فيها زوجاتهم ، ويتقبلون فيها ضيوفهم

وكان التاتار قبل مئة سنة من هذا التاريخ قبائل تعيش عيشة البداوة ، تنتقل من مكان الى آخر طلباً للكلاء والماء ، فلما مكنت الحروب رؤساءهم من ان يملكوا اكثر البلاد المعروفة في آسيا ، اصبح هؤلاء رجال الحرب والسلطان واصبحوا شيئاً مذكوراً في مواطنهم .

لقد كان واحدهم يقول « ان رمال الصحراء لتذهب بنفخة واحدة ، وقد تذهب سعادة الانسان وحظه باسرع من ذلك »

وقد يبكي واحدهم في لهوه ولعبه ، ولكنه في الحرب ضاحك الوجه ظاهر البشر ، وليس بينهم من يموت في منزله وبين اهله وولده واقل من ذلك الرجل الذي لا يحمل كثيراً من الجراح في جسمه وصدره .

وكانوا قوماً يحبون الصيد والقنص ، واذا تمكن احدهم من اصطياد نسر كان ذلك مداراً للفخر بين قومه ، وكثيراً ما حملوا الى

منازلهم كثيراً من الطيور يرمونها باقواسهم فيصيبون منها مقتلا ، واذا ما اعترضهم نمر وقفوا يصادمونه دون ما خشية ولا خوف

واذا جلسوا للاكل تناولوا الطعام من صحن واحد ، و كلهم باسط ذراعيه خلفهم ، و كان لحم الجواد من اطيب اللحوم عندهم ، و كذلك كانوا لا يرون بأساً في فخذ الجمل يجدونه شهياً طيباً كما يفعل العرب ، والواقع ان هؤلاء التتار كانوا يحبون العرب ويحترمونهم ، اليسوا يجدون فيهم الجرأة والقوة وحب الغزو والحرب

و كانوا يصرفون اوقاتهم يأ كلون ويشربون في قصر نائب الملك – او الرجل الذي يخلق الملوك – والواقع ان البارلاس كانوا قوما ينظرون الى عظمتهم الحربية كما تنظر الكتيبة من الجند الى ما نالته من امجاد وفتوح في المعارك ، لا يعرفون في غير السيف مجداً ، ولا يتزوج واحدهم فتاة من عامة الناس لان ذلك من العار عندهم ثم انهم كانوا لا يوفقون في شؤونهم التجارية فيخسر واحدهم ما لديه دائماً ، وقد يقع في الدين لانه يريد اكرام ضيوفه ، لان الضيافة عندهم كانت من الواجبات . و كانت منازلهم تعج دائما بالضيوف وماشيتهم تنقص رويداً رويداً

و كان هناك في المدينة الخضراء جماعات من الايرانيين والفرس وغيرهم يعملون في الزراعة والتجارة ويستمعون الى القرآن بعد فراغهم من اعمال النهار ، و كانت هذه الجماعات تضع العمامة

واما البارلاس فكانوا يضعون على رؤوسهم شيئاً اقرب الى الجوذة وكان الاولون يأتمرون بامر القرآن ، واما الاخرون فيأتمرون بمذهب جنكيز خان .

وكان ينقص البارلاس زعيم يقوم بشأنهم ، فان (تراجي) كبيرهم — ووالد تيمورلنك — كان رجلا ليناً هادئاً لا يحب الحرب ولا يرغب في سفك الدماء ، فراح ينصرف الى الفقهاء ورجال الدين يحادثهم ويحاورهم ويستمع الى القرآن معهم ثم قويت هذه الرغبة الدينية في نفسه فذهب الى صومعة ينصرف فيها الى عبادة ربه ، ويقضي فيها نهاره يصلي ويقرأ القرآن .

قال تراجي لابنه يوماً « ان الدنيا ليست الا اناء مليئاً بالعقارب ولذلك رأيت ان اعتزلها واهلها . »

وكثيراً ما تحدث تراجي الى ولده تيمور بتاريخ الاجداد ، ومع ان الاجداد كانوا من الوثنيين فان الاب التقي لم يكن يرى في حديثه عنهم كبير امر ، وما كانت حياتهم غير سلسلة من الغزوات والمعارك والمغانم منذ ارسلت شياطين الجحيم جنكيز اليهم فحمل بهم على العالم المعروف في عهده ، وقبل وفاته قسم مملكته الكبيرة الواسعة بين ابنائه وابناء ابنه الكبير الذي توفي قبل موته . فاعطى ابنه شاكاتي بلاد ما وراء النهر ولكن ابناء شاكاتي وحفدته كان يهمهم من الحياة كلها ما فيها من الوان اللعب واللهو

فانصرفوا للاستمتاع بذلك ، واتخذوا مقرهم في الجبال الشمالية وتركوا نائباً عنهم في العاصمة سمرقند يتولى امرها وينظر في شؤون بلاد ما وراء النهر ، وابناء شاكاتي يلقبون (بالخان) كما تعلم .

وقال تراجي لابنه تيمور : «واعلم يابني اني لااريد ان تخرج عن شريعة الله التي نقلها الينا رسوله صلى الله عليه وسلم ، احترم السادة العلماء ، واطلب دعاء الدراويش ، واعتصم بالصلاة والصوم والزكاة والحج»

وانصرف تراجي تاركا ولده وحيداً ، فابصره احد رجال الصومعة ، فتقدم اليه ، فوجده يقرأ القرآن ، فالتفت اليه قائلا :

— من انت وما اسمك ؟

— انا تيمور ابن تراجي

فنظر اليه السيد برهة والى القرآن الكريم مثلها ثم قال له :

— ان الله يحفظك ما كنت مؤيداً لدينه

واثرت هذه الكلمات في تيمور فانصرف عن لهوه المادي، من لعب الشطرنج وغيره مدة من الزمن ، وكان اذا مر بدرويش ركع امامه وطلب دعاءه ، وراح يحفظ آيات القرآن ولكن بصعوبة لانه لم يكن يحسن القراءة .

وكان تيمور في هذا الوقت في السادسة عشر من عمره ، وكان يكثر من الذهاب الى المسجد ومجالسة العلماء فيه ، حتى لمحه الشيخ

زين الدين فطلبه اليه ونظر في وجهه ملياً ثم اهداه بعض الهدايا ، وكان زين الدين هذا من ادق الناس نظراً واحسنهم فراسة ومن يدري فقد يكون وقع في نفسه ان تيمور مقبل على امر جلل في مستقبلات الايام.

وكان الحاج بارلاس زعيم عشيرة بارلاس في هذا الوقت، الا انه كان ضيق الصدر كثير الوساوس شديد الحذر ، وكان لا يراه الناس في المدينة الخضراء الا نادراً مما جعل ادارة العشيرة في عهده تضطرب من سيء الى اسوأ ، ومما حمل الكثيرين من رجالها واشرافها وشجعانها على مغادرته والذهاب الى حيث يقيم نائب الملك في سمرقند يعرضون عليه طاعتهم وسيوفهم .

ونصح والد تيمورلنك ابنه بان يفعل مثلما فعلوا ، فذهب تيمور بدوره الى سمرقند وغادر المدينة الخضراء .

٣

نائب الملك

كان تيمور في هذا الوقت شاباً لا ينتظم له عمل من الاعمال، ولكن في بطالته وقضائه ما بين حاشيتي نهاره دون ما عمل شيء من القوة ، كان قوي العضل قوي الجسم ، كبير الرأس منبسط الاعضاء ، واسع العينين تظهر فيهما الصرامة والقوة ، وكان هادئ الحديث هادئ التفكير ، قوي الحجة يضم الى ذلك كله شدة وقوة عجيبتين .

ولقد نقع عليه في الشتاء يطارد بعض الصيد مع رفاق له ثم نراه يدفع حصانه الى القفز من مكان في الجبل الى آخر فلا يوفق الحصان ، ويسقط الى الهاوية ، ويقفز تيمور منه الى ارض السلامة ثم نراه بعد ذلك يحاول العودة الى منزله ، وقد اشتد الظلام واخذ المطر ينزل مدراراً ، فيضل طريقه حتى يرى ناراً مشبوبة ، فيتقدم اليها فاذا به امام قوم خرجوا من خيامهم وقد ظنوه واصحابه قطاع طرق فهموا به ، لولا ان ناداهم قائلا :

— يا ابناء الخيام ، انا ابن التراجي ! !

وعندئذ يترك القوم رماحهم ويستقبلونه وجماعته باكرام زائد، فيمضي ليله عندهم . . . ولا ينس تيمور اكرامهم له، فاذا ما اصبح شيئاً مذكوراً ساق لهم بعض الهدايا والتحف

لقد كانت الضيافة عند المسلمين من ابناء هذه البلاد فرضاً واجباً ليس من سبيل الى قضائها الا بمثلها، والتتار كانوا قوماً يسافرون كثيراً، وتيمور ينتقل من خيمة الى اخرى ومن ضيافة الى مثلها، وكان يطوق تيمور في ذلك الحين ان يقطع مئات الاميال في ايام قليلة هو وجماعته لا يحمل غير سيفه ورمحه، فاذا رأى قافلة عربية اكرمه اصحابها لنسبه ونبله، وان وقع على جماعة من سكان الجبال احتفلوا بمقدمه وراحوا يقصون عليه اخبارهم ووقائعهم، وهو في سياحته هذه واجد ما يحتاجه من مأكل ومشرب وفراش .

فلما مشى تيمور الى سمرقند قسم ما يملكه من ارض وماشية على جماعة من المزارعين الذين يثق بهم للعناية بالارض، والاهتمام بالماشية وارسال حصصه الى سمرقند ولم يكن تيمور صاحب نعمة وافرة ولكن القليل الذي عنده كان يكفيه . .

وغادر تيمور بلده متوجهاً الى سمرقند يصحبه خادمه الامين عبدالله، ولم يكن هناك بين اهله من يعطف عليه غيره، فقد توفيت والدته واعتزل والده الدنيا في صومعة للعبادة والتفكير، واما انسباؤه

فكانوا اقرب الى ان يكونوا اعداءه ، ولذلك فقد مشى الى العاصمة فريداً وحيداً لا يملك غير سيفه وليس له من الحرس غير خادمه ، بقصد العيشة بين قوم لا يعتمدون على غير سيفهم في هذه الحياة المضطربة الثائرة .

واخذ القوم يتأملونه لما اشرف عليهم ويمعنون النظر في ملابسه وهندامه ليروا فيما اذا كان يجيد ركوب الخيل والضرب بالسيف وكان هؤلاء التاتار الذين يخدمون نائب الملك يعدون الفين من الاقوياء الاشداء ، ولكن احداً منهم لم يفكر في تدريب تيمور وتعليمه فتركوه يتعلم وحده ويختبر الدنيا بنفسه .

وفي احد الايام اشرف على القصر رجل يخبر ان بعض قطاع الطرق قد نهبوا ما يخصه من الماشية والخيل وهربوا بها ، فطلب الامير (كاز كان) من تيمور ان يذهب على رأس جماعة من التتار لاسترجاع الماشية ومعاقبة المعتدين ، فاسرع تيمور في جماعة من لابسي الخوذة — اي التتار — اليهم فوجدهم من الفرس فقاوموه مدة قصيرة ثم هربوا ، وعاد تيمور منصوراً يرد الماشية والخيل الى اصحابها ، ويكرمه الامير لما اظهره من جرأة وبسالة .

وظهر عطف الامير على الشاب تيمور ، وكثيراً ما كان الامير يقول له انك من اصحاب النسب الشريف المعروف ، ولكنك لست من نسب جنكيزخان : ولقد صار الاتفاق بين اجدادك وابناء

جنكيزخان ان يكون ابناء جنكيز الملوك وان تكونوا انتم امراء الجيش والقواد ، ولقد اتبعت هذا الاتفاق وقمت بموجبه حق القيام ، وحاربت وقاتلت فلم اهرب ولم اتأخر فترى القوم يتبعونني ، وترى اسمي مشهوراً محموداً ، هذا طريقك وليس بطوقك ان تسلك طريقاً غيره .

وكان تيمور يعرف ذلك ، ويعرف ان ابناء جنكيز ويطلقون عليهم لقب الخان — قد ضعف حكمهم مع الزمن وانتقضت عليهم بعض الممالك والمدن ، فراحوا يكتفون بحكم البلاد الواقعة وراء الجبال ، يقضون ايامهم في القنص والصيد ، ولا يظهرون حول المدينة الخضراء اوغيرها من المدن الا للسلب والنهب يزعمون ان هناك ثورة يريدون اخمادها .

وكان « كاز كان » اميراً وقائداً لجيش احد هؤلاء (الخانات) وقد جعل مركزه سمرقند حتى ضجر من هذه الغارات فثار على (الخان) وكان من اثر ذلك معارك كثيرة انتهت بموت (الخان) واستقلال (كاز كان) بالحكم لنفسه ، ولكنه رأى من حسن السياسة ان يخلق لنفسه ملكا فبحث حتى عثر على احد حفدة جنكيز خان فاجلسه على العرش وقام يطعمه ويسقيه ويحكم باسمه ولذلك سمي (كاز كان) الرجل الذي يخلق الملوك .

وقد كان (كاز كان) كتيمور لاينتمي الى اسرة جنكيزخان

التنظيمة الملكية ، ولكنه كان سياسياً داهية فسعى لتوثيق الملاقات بينه وبين جيرانه ، وراح بعد ذلك يتصرف للراحة من عناء الثورات فلا يحمل السيف ولا يدفع جنده لحرب او غزو الا عند الحاجة القصوى . والواقع انه لم يكن واثقاً من رجاله التتار ، فلما اقبل عليه تيمور ، وجد فيه نائب الملك شاباً قد يفيده في المستقبل كثيراً .

وكان هناك في البلاط بعض الامراء والقواد ، استقامت احوالهم وعظم شأنهم بعد ثورة (كاز كان) وكان بعضهم قوياً يمشي خلفه عشرة آلاف من الجند ، الا انهم في الواقع كانوا يقدمون طاعتهم الاسمية (للخان) الذي انشأه كاز كان ، وكان هذا بدهائه قد تمكن من حملهم على القبول بسلطته ، وعدم الثورة عليه .

ولاحظ (كاز كان) ان تيمور محبوب من جماعة (البهانور) وهم اقوى جماعات التتار ، واشدها بأساً ، يندفعون الى القتال والابتسامة لا تفارق محياهم ، وكان تيمور قد التصق بهم واصبح واحداً منهم يشاركهم في لهوهم وغزواتهم ، وكانوا يجدون به وجداً شديداً ، ويحترمون فيه هذه الشجاعة التي يظهرها في الغزوات التي يساهمهم فيها ، وهذا الهدوء الذي يظهر عليه كلما عرضوا عليه فكراً او تقدموا اليه برأي .

والواقع ان هذا الشاب كانت تظهر عليه وهو مايزال فتى مؤهلات السلطان والزعامة ، كان شديد الايمان بنفسه وقوته ،

راح بطلب يوماً من (كاز كان) ان يزعمه على جماعات البارلاس — وهم عشيرته — فقال له نائب الملك :

— تمهل قليلا ، ان هذا عائد اليك حتما في المستقبل .

ورأى نائب الملك بعد مدة ان يزوجه فتاة من انسبائه تمت بالنسب الى عائلة حاكمة ثقة منه ان رابطة المصاهرة توثق هذه العلاقات التي اخذت تشتد بينه وبين هذا الشاب الجريء القوي .



٤

الزواج

تقول المصادر التاريخيه القديمة ان عروس تيمور كانت من ذوات الملاحة والجمال ، وانها لما زفت الى تيمور كانت في الخامسة عشر من عمرها ، لانها كانت تشارك والدها في صيده وقنصه ، وليس يسمح للنساء عند التتار ان يخرجن الى القنص الا ان يكن قد بلغن هذا السن ·

واما اسمها او الاسم الذي اطلق عليها بعد الزواج فهو (الجي كان آغا) ·

ولم تكن النساء يتحجبن عند التتار في ذلك العهد بل كن يخرجن مع بعولتهن للصيد والقنص والحج والسفر والحرب ، وسبب ذلك انهن زوجات لشجعان مساعير ، فليس مكانهن والحالة هذه المنزل الضيق ، بل الهواء الطلق ، والحرية المطلقة ينعمون بها اينما ساروا· وقديماً كانت النساء ينصرفن الى العناية بكل شؤون المنزل من طبخ وتنظيف وصنع ملابس والنظر في امر الماشية وغير ذلك ، اما اليوم فقد تغيرت الاحوال ، واصبحت المرأة رفيقة الزوج في

حله وترحاله ·

وكانت نساء التتار في ايام تيمور ، يتصرفن في شؤونهن المالية تصرفاً لا علاقة له باملاك الزوج ، وكانت السيدات فيهن مستقلات كل الاستقلال في دورهن ، لهن قصورهن وخدمهن وحشمهن ، بخلاف النساء عند الاوربيين اللاتي كن ينصرفن الى التطريز والخياطة وغيره ، ذلك ان المرأة الشرقية كانت رفيقة قوم محاربين ، فكن والحالة هذه يعنين باولادهن ، ويحضرن المآدب ، وينزلن الى المعارك ، واذا غلب العدو ازواجهن ، فهن من جملة الغنائم والاسرى ·

وجاءت الاميرة (الجي) من منزلها الواقع في الشمال يرافقها اهلها وخدمها الى قصر نائب الملك ، وفيه رأت لاول مرة زوجها تيمور — وكان عائداً من غزوة مع جماعة (البهاتور)— فنظرت اليه وتذكرت قول احد الحكماء من بني قومها :

« ان مصيرك مكتوب على جبهتك ، وليس بطوقك ان تبدلي من ذلك حرفاً »

واما الفرح فكان لنائب الملك وحاشيته وسيلة للهو والعبث والشراب ، واما لهذه الفتاة التي تنتمي لعشيرة (الجلار) القوية فكان مقدمة لدخولها في حياتها الجديدة ، وعقد القران بحضور الشيوخ والعلماء وامضى الشهود العقد وفاقاً للشرع والتقاليد ، وراحت

العروس تستعد لزواجها وتتطيب وتتضمخ ، ثم لبست ثوب العرس وسار خدمها خلفها ، وقد ارتمى شعرها الاسود على اطراف جسمها .

فلما انتهت من زينتها مشت بين صفوف التتار الذين كانوا يشربون ويمزحون ، ثم عادت الى غرفتها فبدلت ملابسها وراحت تمشي بين الصفوف كالسابق ، وفي هذه الفترة اخذ نائب الملك من جيبه قبضة من الجواهر رمى بها القوم في حضرته ، وعندئذ دقت الطبول ، فقال الشيخ زين الدين :

— لتنزل بركة الله على العروسين .

وجاءت الان ساعة توزيع الهدايا ، وهي لا توزع على العروسين بل على كبار التتار ... فراح الامير (كازكان) يقوم بهذا الواجب بنفسه ، وهو يعلم ان هذا معزز لمركزه مؤيد لسلطانه بين بني قومه .

وعاد الفرح الى شدته وقوته وانبعاثه هذا يشرب ، وذاك يغني وهذا يقص خبراً ، وآخر يحدث حديثاً ، والجميع في مرح وطرب حتى اقبل الليل ، وانيرت الشموع ، وجاءت العروس (الجبى) تمشي بدورها بين الضيوف كرة ثالثة ، ولكنها كانت الاخيرة ، فقد جاء تيمور بفرسه البيضاء ، ولما اقتربت عروسه منه حملها عليها وسار بها الى منزله .

وهناك اخذ الخدم يعاونونها على خلع ثيابها ، ولما جاء تيمور الى غرفة الزواج غادرها الجميع وظل العروسان لوحدهما ..

لقد كانت الجى اول ازواج تيمور ... ولم تعمر طويلا .. ولكنها في حياتها كانت لا يشاركها فيه مشارك

واقام تيمور وزوجه في منزل انشأه خصيصاً لها وقد جمع فيه كل السجاد والستائر والحرائر التي كانت تعود اليه من غزواته ، واما الامير (كاز كان) فقد اصدر امره بترقية تيمور الى رتبة قائد الالف، وسر تيمور بهذا الرقي الجديد ، فكان يعنى برجاله عناية فائقة ، لا يتناول طعامه الا وعلى سفرته بعض جنده ورجاله

وكان يحفظ اسمائهم جميعاً ، ويحبهم ويحبونه حباً جماً ، وكانت فرقته دائماً في طليعة الجند ، ذلك ان (كاز كان) كان يعرف الرجال ويعرف اين تكون الشجاعة والجرأة .

وكثيراً ما رآه الطريق الذي يصل بين سمرقند ومنزله يتقدم رفاقه من الفرسان ، يحاول استباق الدقائق التي تفصل بينه وبين زوجه ليقبلها ويخبرها ان رفاقه معه وانه قد دعاهم الى سهرة فيها شراب وفيها اكل وفيها لهو كثير ...

ولما ولدت زوجه ولداً ذكراً اعطاه لقب — فاتح العالم — واقام على شرفه حفلة حضرها نائب الملك وكل الامراء والقواد في القصر اكراماً لتيمور ولم يحضر هذه الحفلة عمه (الحاج بارلاس) ولا (الامير بيزيد جالار) زعيم عشيرة زوجه ، واما جماعة الجبل وهم يؤلفون اشد القبائل التتارية شدة وقوة فقد اخذوا يتغنون بمحامد

مضيفهم واميرهم تيمور شعراً ونثراً .

وتمكن (كاز كان) بواسطة تيمور من النجاح في عدة غزوات شمالا وغرباً ومن ان يحمل الى قصره في سمرقند ملك هرات اسيراً ، وكان من المؤكد ان يشتد ساعد (كاز كان) ويقوى شأنه بمساعدة تيمور لولا ان وقع الاختلاف بين الامراء في مملكته .

وسبب ذلك ان هؤلاء الامراء راحوا يطلبون من كاز كان ان يقتل (الخان) الذي يحكم باسمه (كاز كان) والذي كان لا يظهر للناس الا نادراً ، لانه كان ملكا في الاسم فقط ، وان يقسم بينهم املاكه وثروته ، ولكن (كاز كان) كان وعد هذا (الخان) لما اجلسه على العرش ان يحافظ على حياته ، وكاز كان ليس من الرجال الذين يحنثون بوعودهم ، فعمل على تهريبه ، وليس ثابتاً ما يشاع من ان تيمور نفسه قد هربه بالاتفاق مع نائب الملك

وبعد ايام وفيما كان نائب الملك منصرفا الى القنص والصيد خارج سمرقند مع بعض رجاله هجم عليه اثنان من الامراء مع رجالهم وقتلوه

فاسرع تيمور الى حيث وجد جثة نائب الملك واحتملها الى مقرها الاخير وراح يطارد القتلة مع بعض رجال نائب الملك حتى تمكنوا منهم فقتلوهم ورجالهم .

وكانت العادة في اواسط اسيا انه اذا مات ملك لا يستطيع ابنه ان يجلس مكانه الا ان تكون الحالة هادئة والمملكة متحدة ،

وولي العهد قوي يستطيع القيام باعباء الملك ، والا فان رجال المملكة وكبارها يجتمعون لانتخاب خلف له ، او يحدث حادث آخر ، وهو ان يحارب بعضهم بعضاً ، ويجلس على العرش اقواهم واكثرهم جنداً .

ولقد حاول ابن (كاز كان) ان يجلس مكان ابيه ولكنه لم يوفق فهرب من سمرقند مفضلا الحياة على عرش تحوطه المخاطر ، وعندئذ جاء الى سمرقند الحاج بارلاس ، وامير الجالار يطلبان العرش . واما بقية الامراء فقدذهب كل منهم الى مقره واخذ يستعد للدفاع عن املاكه ، وعلى محاربة غيره اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، وقد كانت هذه عادة الامراء ، ولو انهم وجدوا في ذلك الوقت اميراً قوياً يخافونه ويخشونه لمشوا ورائه ، ولكن الحاج بارلاس ، والامير يزيد لم يكونا من الرجال الذين يستطيعون اخضاع هؤلاء الامراء لامرهم .

وفي هذه الفترة توفي والد تيمور ، وكان تيمور في المدينة الخضراء ومعه بعض مئات من قومه البارلاس ، واما الباقون فقد ذهبوا مع الحاج بارلاس الى سمرقند .

وكان الخان في الشمال يرقب الحوادث ، فلما رأى تمزق شمل مملكة (كاز كان) سقط بجنده عليها يحاول كما هي عادته ان يضمها الى املاكه ، وان يمعن في اهلها قتلا وسلبا ونهبا .

٥

تيمور السياسي

لما رأى امراء التتار جموع الخان تتقدم نحوهم انسحبوا جميعهم الا الامير بيزيد الذي كانت امارته واقعة في طريق الخان نفسه فانه اضطر مسرعاً للذهاب اليها وتقديم خضوعه للخان ، والاعتراف بسلطانه .

واما الحاج بارلاس – عم تيمور – والذي اصبح زعيما لعشيرة البارلاس بعد وفاة شقيقه والد تيمور – فانه عزم اولا على مقاتلة الخان ، ثم غير فكره وانسحب بقومه وماشيته الى جهات هرات ،

واما تيمور فانه ابى ان يترك المدينة الخضراء واعتزم الذهاب بنفسه الى بلاط (الخان) والتحدث اليه ، لانه كان يعرف ذهنية الخان زعيم المغول – ورغبته الملحة في السلب والنهب ، ولذلك ارسل زوجه وولده مع عمه ، وراح يرقب الحوادث في المدينة الخضراء ، ينتظر مجيء الخان وهو هادئ القلب مطمئن البال

يقول المؤرخون الذين ننقل عنهم هذه الحوادث ان تيمور

راح يمضي الليل كله مع الشيخ زين الدين ، وليس يدري احد بما جرى بين الاثنين من حديث ، ولكن تيمور راح في اليوم التالي يجمع كل ما عنده من مال وماشية وملابس وحرائر ، وبعد ايام ظهرت جموع الخان ، وتقدمت طلائعه الى حيث القصر و كم كان عجبهم شديداً لما رأوا تيمور اهدأ ما يكون جناناً يستقبلهم استقبال الضيوف ويذبح الخرفان لاطعامهم ، ويفتح مختلف الاشربة لهم فاذهلهم ما رأوه وراحوا يعجبون من كرمه وسخائه .

وفي اليوم التالي حمل تيمور الى الخان كل ما لديه من مال وماشية ، فاعترضه في طريقه الى سمرقند بعض قواد (الخان) فاعطاهم بعض المال ، فتركوه وشأنه حتى حط رحله امام سرداق الخان الكبير بالقرب من سمرقند .

ودخل الى سرداق الخان فوجد حوله رجاله وقواده ، فسلم قائلا :

— يا مولاي الخان ، انا تيمور زعيم البارلاس وامير المدينة الخضراء . .

ولما قدم تيمور (للخان) الهدايا التي حملها معه اعجب بها الخان اعجاباً عظيما ، وعرف ان تيمور لم يحتفظ لنفسه بشيء منها ، فزاد ذلك في عطفه عليه واعجابه به .

ولكن تيمور راح يقول له :

— ولقد كان بطوقي ان احمل لك اكثر من هذا ولكن ثلاثة من قوادك سلبوني في الطريق .

وظهر الغضب على وجه الخان لما سمع هذه الكلمة ، فارسل بعض رجاله الى قواده الثلاثة يطلب منهم رد المال الذي سلبوه من تيمور . فلما سمع هؤلاء بالخبر اسرعوا الى بلادهم ينهبون ويسرقون ويقتلون في طريقهم ، وراحوا يعتصمون ويثيرون الفتن ضد الخان ، فلما عرف هذا بامرهم سأل تيمور رأيه وكان قد اخذ يثق به ، فقال له :

— من الحكمة ان تذهب لمحاربتهم في ارضهم لانك هنا بين عدوين ، واما هناك فامام عدو واحد فقط .

واعجب الخان برأي تيمور وعمل به ، ولكنه قبل ان يذهب الى بلاده عهد الى تيمور بالامارة على عشيرة البارلاس وجعله رئيساً لعشرة آلاف من الجند . وكذلك عاد تيمور الى عهد اجداده ، يوم كانوا يحكمون مدينتهم بامر الخان .

ولما ذهب الخطر المغولي رجع امراء التتار الى انقساماتهم الداخلية ، واتفق الحاج بارلاس ، والامير بيزيد على قتل تيمور والخلاص منه ، ونصبا له مكيدة نجا منها ، وعندئذ خجل الامير بيزيد من نفسه وانسحب من المؤامرة ، وترك الحاج بارلاس وحده فمشى هذا الى المدينة الخضراء يحاول الاستيلاء عليها ، ولكن تيمور

تمكن من الاتفاق مع الامير حسين شقيق زوجته واخذ الاثنان يحاربان الحاج بارلاس الى ان ظهر الخان مرة اخرى وهو اشدما يكون غضباً ونقمة وحباً لسفك الدماء ، فكان اول ما عمله انه قتل الامير بيزيد ، وفر الحاج بارلاس من وجهه فقتله بعض اللصوص وحاول الامير حسين مقاومته فانكسر شر كسرة ، واما تيمور فظل قابعاً في المدينة الخضراء .

وعلى اثر ذلك عين الخان ابنه الياس حاكماً على بلاد التتار ، واقام بجانبه احد قواد المغول ليحافظ على الامن ، واما تيمور فقد عينه الخان اميراً على سمرقند على ان يتلقى اوامره من ابنه الياس والقائد المغولي .

وحاول تيمور الاحتجاج عبثاً على هذا التقييد الذي جعله اشبه بعامل بسيط منه بامير مستقل ولكن الخان قال له :

« ان الاتفاق بين اجدادك وبيننا هو ما فعلت وامرت ، ابناء جنكيز خان يحكمون ، وانتم تكونون الامراء المطيعين »

ولكن هذا الاتفاق لم يدم طويلا لان القائد المغولي اخذ ينهب ويسلب ، ويسبي الحرائر من التتار فيبيعها ، فاحتج تيمور على ذلك الى الخان ، فكان جوابه عدم الرد ، فقام عندئذ بجمع رجاله وهاجم رجال المغول فكسرهم واطلق سراح الاسرى ، فلما علم الخان بثورته امر رجاله بقتله ، فلما بلغ تيمور ذلك فر من وجهه الى الصحراء .

٦

تيمور المتشرد

ركب تيمور باهله وبعض رجاله الى الصحراء هاربا من وجه الخان وجنده ، وليس المكان الذي قصده تيمور صحراء بالمعنى الصحيح فقد كان يوجد فيها ماء واشجار ، الا انها كانت ارضاً قليلة السكان مقطوعة السبل لا يسلكها الا من كان قوياً باسلا ، لكثرة من يقصدها من قطاع الطرق يرتصدون غنيمة ، او قافلة ضعيفة ، وبعد مشقات طويلة اجتمع تيمور بالامير حسين شقيق زوجته (الجي) وكان فاراً من وجه الخان مثله ، وكان هذا رجلا شجاعاً الا انه ضعيف العقل كثير التقلب كان اليه الحكم في كابول ، فغادرها هارباً ، فلم يكن يهمه الا ان يعود اليها فاتحاً حاكماً .

ولما اجتمع الرجلان وجد تيمور في نسيبه عوناً وان كان هذا يعتقد انه اكثر شرفاً من تيمور واعظم شأناً . ولكن (الجي) كانت سبباً في التوفيق بين الرجلين فاتفقا امام الخطر الداهم ، وكانت الجي

سيدة قوية الارادة لا تهاب المكاره ، تبتسم للمخاطر وتقابلها بصدر قوي كالفولاذ .

وهمَّ احد الامراء لما عرف بوجودهما قريباً منه . ان يقبض عليهما ويسلمهما الى الخان ، فذهب مع نفر من رجله لامرهما ولكنهما توفقا الى رده وقتل تيمور الامير نفسه بعد معركة شديدة كانت نتيجتها مقتل اكثر رجال تيمور والامير حسين بحيث لم يبق معهما غير فئة قليلة ، وعلى اثر ذلك اتفقا على الافتراق حتى لا نعرف اثارهما فذهب الامير حسين وحده ، وانصرف تيمور وزوجه واحد خدمه .

وليس هنا مجال التبسط في وصف الاشهر التي قضاها تيمور وهو في هذه الحالة ، فقد اسر مرة ثم اطلق سراحه ، فراح ينصرف الى جمع بعض الرجال حوله ، لانه من الخطر ان يظل فريداً وحيداً خصوصاً وانه قد اتفق مع الامير حسين على الاجتماع في مكان عيناه بعد ان يجمع كل منهما بعض الرجال ليكون بطوقهما مقاومة القوات الكثيرة التي كانت تحاول قتلهما .

وقد رأى تيمور ان يذهب الى سمرقند بنفسه ويتعرف على الحالة فيها ، فتمكن من دخولها متخفياً وظل فيها ثمانية واربعين ساعة ، وهذه مخاطرة لم يكن لها فائدة ، لان رجال الخان كانوا يحكمون البلاد بقوة السيف ، وجماعة البارلاس والجالار — عشيرة

الامير حسين – كانوا يستكينون الى هذا الفتح لانهم قوم لا يعرفون من الدنيا الا الطاعة للقوي ، وحب القتال والكر والفر ، وقد كان الامير حسين فاراً ، و كذلك كان شأن تيمور ، وفرارهما دليل على الضعف ، والضعف لا يأتي لهما بالمناصرين والمؤيدين

– ولكن تيمور تمكن وهو في سمرقند من ان يجمع حوله بعض الفتاك الشجعان من الذين لا يهابون الموت ، ولا يرون الحياة الا ثائرة دامية ، جماعة من التركمان والعرب وقطاع الطرق ، ومن الذين لم يوفقوا في حياتهم ، وهذه الجماعة وان كانت قليلة العدد ، الا انها كانت قوية البأس شديدة المراس .

ولما وصل تيمور الى ضواحي المدينة الخضراء اجتمع الى بعض رجاله القدماء من عشيرة البهانور ، وقضى ليله مع بعضهم يحدثهم ويحدثونه ، وقد تمكن من اقناع فئة منهم بضرورة تأييده والسير معه ، لانه من العار على امثالهم ان يكونوا عبيداً اذلاء في ارضهم وبلادهم . .

ولما اصبح الصباح مشى معه بعضهم و كانت وجهتهم المكان الذي اتفق تيمور والامير حسين على الاجتماع به

و كان الامير حسين قد سبقهم الى المكان المعين – الذي كان قريباً من مدينة قندهار – ومعه عدد كبير من المتطوعة والجند يزيد عددهم عن جماعة تيمور ، ومضى الجماعة الشتاء في هذا

المكان ينتظرون فرصة تمكنهم من العمل ، ولم يطل ذلك عليهم فقد راح احد امراء سجستان يطلب معونتهم لقمع الثورة القائمة في بلاده ، فرضي تيمور والامير حسين بذلك ، وقد رأى الاول في هذا الطلب سبيلا للعودة الى الحرب والقتال ، ووجد الثاني فيه طريقاً قد يوصله الى احتلال البلاد كلها والاستيلاء عليها

ولقد اظهر تيمور في المعارك التي دارت جرأة فائقة تمكن معها من الاستيلاء على عدة حصون كان يعتصم بها الثوار ، ولكن الامير حسيناً دفع رجاله الى السلب والنهب ، مما اغضب اهل سجستان والثوار فيها فكتبوا الى اميرهم يقولون :

« نحن لا نقصد بك شراً ، واتفاقك مع التتار مضر بمصلحتك ومصلحتنا ، لانهم اذا تمكنوا من الاستيلاء على البلاد خلعوك وقاموا مقامك » .

وصادفت هذه الكلمات هوى في قلب امير سجستان ، فترك جماعة تيمور والامير حسين والتحق بالثوار ، وهو انقلاب كان كثير الوقوع في هذه البلاد الغريبة ، ولا يرى فيه سكانها كبير امر .

ولكن جماعة تيمور والامير حسين تمكنوا من صد الثوار ومن التف حولهم فردوهم بعد معركة شديدة ، وزاد ذلك في قوة التتار ومناعة مركزهم ، اما تيمور فقد جرح في هذه المعارك

واضطر لملازمة فراشه وظلت معه زوجته تعنى به ، وذهب الامير حسين باكثر الجند الى الشمال .

وظل تيمور مدة شهر كامل في فراشه حتى تم له الشفاء ، فطلب سيفه ورمحه وفرساً وراح يعدو خلف رجاله الذين كانوا بحاجة اليه والذين كانوا يصادمون جماعة (الخان) بقيادة الامير حسين .



٧

شيء غير منتظر

اخطأ الامير حسين في تقديره فهاجم خصومه من رجال (الخان) وهم اقوى منه عدداً فكسروه وشتتوا رجاله ، وقداغضب هذا الامر تيمور لان معناه العمل من جديد لجمع الرجال وبث روح الجرأة في قلوبهم ، وليس ادعى من الفشل في مثل هذه الظروف الحرجة ، ولكن تيمور كان لا يزال جريحاً في يده ورجله وحالته لا تسمح له بان يكون محارباً امام الصفوف ، ولكنه اسرع بجماعته الذين كانوا معه الى حيث يقيم الامير حسين وهو كثير التفكير شديد الغضب .

فلما كان بالقرب من نهر جيحون حط خيامه وراح يطلب لخيله ولرجاله بعض الراحة ، واذا به يرى جماعة تتقدم نحوه ، فاسرع نحوهم بمفرده وصاح بصوت عال :

— من انتم والى اين تقصدون ؟

وكان يقوم في الجهة التي جاؤا منها حصن لجند (الخان) فظن تيمور انهم من الاعداء ، ولكن رجلا من الجماعة اجابه قائلا :

ـ نحن من رجال الامير تيمور ، وقد بلغنا انه في هذه الجهة فجئنا في طلبه .

وكان الصوت غريباً لم يستطع تيمور ان يعرف فيه صاحبه، وكذلك كان يجهل اشكال الجماعة التي كانت تتقدم نحوه ولكنه راح يقول :

ـ وانا ايضاً من رجال الامير تيمور ، فاذا اردتم مقابلته فان بطوقي ان ادلكم على مكانه .

وسمع تيمور الرجل يقول لجماعته :

ـ لقد وجدنا دليلا يقودنا الى مقر الامير تيمور

وعندئذ تقدم ثلاثة من رؤساء القوم ، فلما ابصروه عرفوا فيه تيمور نفسه ، فسقطوا امامه على الارض راكعين ، وعرف فيهم تيمور فرقة من جماعته البارلاس .

وكانت وليمة فخمة ذبحت فيها الماشية واخذ القوم يتحدثون الى تيمور بما جرى ووقع في غيابه ، ثم ارسل تيمور احدهم للاستطلاع فعاد يقول انه شاهد فرقة من جنود الجان تتقدم وهي تنهب وتحرق كل ما في طريقها ويقدر عددها بعشرين الفاً ، وزاد على ذلك انه مر بالقرب من منزله ، ولكنه لم يحاول دخوله لانه لا يحق له ان يفعل ذلك واميره خارج المنزل !!

اثار هذا الخبر عواطف تيمور ، وكان يعلم عادات (الجانية) او

رجال الخان ، وكيف انهم لا يعرفون من امور الحرب الا السلب والنهب وحرق المدن وتدمير المزارع ، وآلمه ان ينال قومه هذه الارزاء وان يصابوا في ارضهم ومنازلهم واهلهم ، وكان يعلم انه اذا تمكن من النزول الى بلاده استطاع ان يجمع حوله قوة يستطيع معها مهاجمة المعتدين وردهم ، واما ان يفعل ذلك بمن معه من الرجال فهذا كثير الخطر ، لان عددهم قليل ، ثم ان التقدم الى بلاده وجند الخان امامه ، وقد ضربوا حوله نطاقاً ، مغامرة لا تعرف عواقبها ، ولكنه راح يطاول خصومه ويماكرهم ، حتى استقامت امامه خطة اعتزم اقرارها ، فقسم رجاله الى قسمين قسم تركه امام جند الخان ، والاخر وهو الاكثر عدداً ذهب به وراء الجبل حتى اصبح وراءهم العدوثم امر رجاله بايقاد النار في امكنة متعددة ليوهم جند الخان ان امامهم عدواً كثير العدد ، فلما رأى جند الخان كثرة النيران اسقط في يدهم وراحوا يتراجعون فهجم تيمور عندئذ عليهم واعمل فيهم القتل وجاء الامير حسين برجاله متأخراً ، ينتقد تيمور لمهاجمته عدواً منكسراً هارباً ، ولكن تيمور قال له :

— انهم لم يفشلوا حتى يصح فيهم هذا الوصف ، وانما تراجعوا لما احسوا بان هناك قوة امامهم .

***

فشا امر تيمور بعد هذا النصر ، والتحق به قوم كثيرون

وهم يهنفون ويهللون بان مكنهم الله من عدوهم ، ولكن تيمور كان في شاغل عن كل ذلك ، لان عليه ترتيب اموره وانتخاب قواده ، وتوزيع المغانم على رجاله ، والتعويض على اهل القتلى والجرحى ، وكان عليه ان يظل على جواده متأهباً حذراً ، يرسل رجاله الى هنا وهناك ، حين يستشعر شراً ، او يحس مقاومة ما .

ومثل هذا الشيطان يماكر رجال الخان ويخاتلهم ويحاربهم ويهاجمهم ويتعقب آثارهم كان من الحق ان يحملهم على ترك بلاد ما وراء النهر ، وفي هذه الفترة توفي الخان ، فاضطر ابنه الياس الى العودة الى عاصمة ايه تاركا بلاد ما وراء النهر لاصحابها واهلها .

وتمكن تيمور في هذه الفترة من القبض على قائد جند الخان ، ولكنه عاد فاطلقه ثقة منه ان مثل هذه السياسة قد تفيده ، وتجلب له من الانصار والاعوان عدداً غير قليل ، ثم اغار على المدينة الخضراء ، وكانت تعتصم فيها فرقة من رجال الخان (الجاتية) فرأى تيمور بعد نظره انه ان راح يحاصرها يطول الامر ، ويقع بالجند عناء كبير ، فعزم ان يحتال على الحامية ، فامر جنده ان يتسابقوا في شبه دائرة ، بعيداً عن حصون المدينة وان يثيروا من الغبار خلفهم ما يبعث على الظن بان المحاصرين كثيرون ، وقد نجحت هذه الحيلة ، فانهزم (الجاتية) وتركوا المدينة ، وكذلك تمكن تيمور في هذه الفترة ، ويوم كان لا يزال متشرداً ان يغلب فرقتين من خصومه ،

مرة بناره ، واخرى بغباره ...

ولكن سوء التفاهم كان يزداد قوة بين فرق تيمور ورجال الامير حسين ، وكان هذا يكره تيمور ويحسده على ما يناله من امجاد وما تحمله اليه فتوحاته من احترام رجاله له وأتمارهم بامره

وكان كثيراً ما يحرج تيمور بطلباته من المال والجوائز ، فكان هذا لا يرد له طلباً ، بل اكتفى بأن حمله مرة على ان يقسم امام الجند بالمحافظة على الصداقة التي تربطهما .

اما الاميرة الجي زوجة تيمور فكانت تعنى بالمرضى والجرحى في ذلك الحين



٨

معركة تحت المطر

ما كاد يستقيم للخان (الياس) الامر في عاصمة ملكه الواقعة حول البلاد الصينية حتى راح يجمع رجاله ، ويرتب جنده ، ويزحف على رأسهم الى بلاد التتار لمقاتلة تيمور وجنده ، و كان تيمور ينتظر منه هذا ، فكان يستعد له ويبعث طلائعه وعيونه ليقف على حركاته وعدد رجاله .

ولقد اتحدت هذه المرة للدفاع عن البلاد كل جماعات التتار ، من البهاتور فالبارلاس ، فقبائل الافغان ، فجماعة الجلار وغيرهم و كانوا كلهم فرساناً ، واما المشاة فكان اكثرهم من الخدم والعبيد .

و كانوا يلبسون دروعاً من الفولاذ الفارسي الخفيف ، وخوذاً من الفولاذ تستر العنق بحيث لا تمكن العدو من ان ينال الرأس بضربة سيف او طعنة رمح واما سلاحهم فكان الرماح والسيوف والاقواس يرمون بها عدوهم اذا اشرفوا عليه ، فاذا التحم الجيشان ، كان السيف اقرب وامضى .

واما الجيش فكان مقسما وفاقاً لقواده وامرائه ، و كان يقف

بالقرب من تيمور والامير حسين عادة بعض رجال الحاشية والامراء والقواد الذين ينتمون اليهما خاصة .

وقسم تيمور جنده الى ميسرة وميمنة وقلب ، و كانت كل فرقة مؤلفة من قسمين قسم للقتال ، وقسم يقوم مقام الجند الاحتياطي في هذه الايام ، وهذا القسم لا يتحرك من مكانه ويساعد رفاقه الا عند الحاجة ، او عندما يأخذ العدو بالهرب فيندفعون خلفه تقطيعاً ومحقاً . ووقف تيمور ورجاله البارلاس في القسم المعرض للخطر اكثر من سواه ، لانه كان يعتمد على رجاله كل الاعتماد ، ويعرف فيهم الجرأة والشجاعة والتضحيه والثبات .

ولما رأى جماعة تيمور حسن نظامهم وقوتهم ، وبراعة قائدهم غمرهم الفرح وايقنوا بالفوز ، ولكن السماء اخذت تمطرهم وابلا ، واخذت مياه النهر تفيض على ما حولها من الارض فتمنع الجواد من الجري ، وتعيق حركات الجند ، وكان البرد شديداً قاسياً ، لم تتمكن معه الخيل من الوقوف واستكمال الاهبة .

واغتنم (الجاتيه) او جماعة الخان هذه الفرصة فهاجموا تيمور وردوا بعض فرقه ، فامر تيمور اصحاب الطبول بدق طبولهم بقوة وعنف يشددون بها العزائم ، ويثيرون بها القوى والعواطف وهجم بفرسانه من البارلاس وسيفه مشهور في يده يقطع ما امامه من رؤوس وخيل ورجال . حتى وصل الى حامل العلم فسقط هذا تحت

ضربة من احد رجال تيمور ، واسقط في يد المغول لما رأوا صاحب علمهم قتيلا فاخذ بعضهم يولون الادبار ، وارتد تيمور الى جهة الامير حسين وكان في موقف حرج يقاتل فرقة من المغول ، اكثر منه عدداً وعُدداً ، فاعمل تيمور السيف بهم من خلفهم فارتدوا منهزمين ، ورأى تيمور ان هذا الانهزام الافرادي يكون عاماً اذا اندفعت جموع التتار تتأثرهم ، ولكن حسيناً ابى الاستماع الى نصيحة تيمور ، ففاتت الفرصة ، واضطر تيمور في اليوم التالي الى مهاجمة المغول بنفسه فلم يوفق ، فارتد حزيناً كئيباً ، يفكر في انه سيضطر الى العودة الى حياة التشرد ، ولو ان الامير حسيناً تولاه بالمساعدة ، لكان انقذ بلاده من المغول ، ووطدملك التتار فيها .

وعرض عليه الامير حسين الذهاب الى جهات الهند ، فابى تيمور وقال له اذهب وحدك اذا اردت ، واما انا فسابقى في بلادي . وعاد الى المدينة الخضراء يجمع فرقة من الجند جديدة ، وكان المغول في هذا الوقت قد ذهبوا لاحتلال سمرقند ...

وبلغ الحزن من تيمور غايته لما وجد زوجه ميتة في المدينة الخضراء بعد مرض سريع في غيابه .



٩

الاميرالة !!

قطع موت (الجي) زوجة تيمور هذه الروابط العائلية التي كانت تربط الرجلين بعضهما ببعض ، ويقول بعض المؤرخين ان تيمور قتل زوجه انتقاماً من معاملة الامير حسين له ، ولكن هذا الخبر لا يؤيده الواقع ، لان تيمور كان يحب زوجه حباً جماً ،وقد احزنه موتها حزناً شديداً حمله على الانكماش في قصره ، يلاعب بعض رجاله بالشطرنج وهي التسلية الوحيدة التي كان يسمح لنفسه بها خصوصاً وانها كانت توافق هواه ، فتمكنه من اقامة الجيوش ، واستنباط الحيل الحربية ومهاجمة العدو ، وكان كثير البراعة في الشطرنج لا يكاد يغلب فيه ابداً

وحصل في هذه الاثناء ان جاءه رجاله يخبرونه بان رجال الخان لم يتمكنوا من الدخول الى سمرقند — كما ظن قبلا — وان سكانها راحوا يردونهم عن العاصمة ، وقد وفقوا في ذلك الى حد بعيد ،وان الطاعون قد نزل بخيل الجاتية فارداها ، فسر تيمور بهذا الانتصار الذي ساقته اليه الاقدار ، وكان الامير حسين قد عرف بذلك ايضاً

فسار الى سمرقند على رأس جيشه ودخلها دخول الفاتحين ، وبحث عن احد حفدة جنكيزخان فاقامه (خاناً) وراح يحكم باسمه ، كما كان الحال مع جده (كاز كان) وبذلك اصبح تيمور شخصاً في الدرجة الثانية ، واصبح عليه حق الطاعة لحسين وهو امر لم يكن يروقه ويسره .

ولما اراد حسين ان يأخذ الضرائب من ارض تيمور اعترضه تيمور قائلا :

— ان الارض لي حتى النهر .

ولما اراد حسين ان يضع ضريبة على البارلاس اجابه تيمور ان قومه في حالة عوز شديد ، وانهم خسروا كل اموالهم في الحروب المتأخرة ، ولكنه راح يدفع من جيبه ما عليهم ، فساق لحسين المال المطلوب وضم اليه مجوهرات زوجه (الجى) وقد عرف الامير حسين مجوهرات شقيقته ولكنه تقبلها بسكوت .

بيد ان السلام بين الاميرين لم يدم طويلا و كان سببه في اول الامر اختلاف رجالها ، ورغبة كل فريق ان يكون الحاكم بامره وزاد الحالة شقاء وتعاسة تدخل المغول في الامر ، خصوصاً وان الامير حسيناً قد اعطاهم سببا باجلاسه (الخان) على العرش ، وهو ما كان يدعو المغول الى اعتبار البلاد تابعة لهم ، أليس الخان منهم ؟ واليس هو الحاكم الاسمي للبلاد ، واليسوا هم رجاله ؟

ولم يكن يتفق الاميران الا على مقاومة العدو الخارجي من المغول فاذا ارتد عنهم عادا الى الاختلاف والنكايات والثورات الداخلية و كان تيمور في كل ذاك يظهر تفرقه وجرأته و كرمه فكان يعرض نفسه للموت كلما هو يطلبه مضحياً بحياته في سبيل رجاله مما زادهم به تعلقاً ، وله حباً .

و كان تيمور في ما مضى قد اقام في كراشي حصناً يفخر به ويود لو يكون له ، و كانت كراشي قد اصبحت في حوزة الامير حسين ، وقد اقام عليها موسى احد قواده ، وهو رجل شجاع قوي فلما تحدث تيمور الى رجاله بافتتاح كراشي ، ولم يكن لدى تيمور غير بعض مئات من الجند ، و كان لدى موسى بضعة الاف ، اسقط في يد رجاله وقال احدهم :

— ان هذا مستحيل ايها المولى .

فقال تيمور — اذن اذهب وحدي ..

ولكن رجاله عادوا اليه ، واعلموه انهم يذهبون معه ، والواقع ان بعض اعمال تيمور كانت تعود بكثير من الخسارة في الرجال والاموال على رجاله ، ولكنها كانت الى ذاك مليئة بروعة القوة والجرأة ، و كأنها حكم القدر لا سبيل الى الهرب منه ، فاذا اعتزم امراً امضاه ، وان اراد شيئاً مشى اليه ، ولو كان في ذاك هلاكه .

وجلس تيمور مع رجاله يبحث الخطة الحربية التي كان يعتزم

معها افتتاح كراشي فلما استمع الى اقوالهم قال :

— ليس من الحكمة ان ندفع موسى الى الخروج من كراشي على رأس جنده ، وهم اكثر منا عدداً وعدداً .

فقال داود وهو احد رجال تيمور الاشداء :

— يصح ان ندخل الى كراشي سراً فنسقط على موسى وهو في فراشه ، فقال تيمور — وهل تستطيع ان تسقط على ثلاثة الاف من رجاله ايضاً بمثل هذه الصورة .

فقال داود : هذا معلق بيد الله خصوصاً وان موسى لن يخرج الينا ابداً بعد ان امره الامير حسين بان يحافظ على الحصن كل المحافظة

فقال تيمور — ولكن ما رأيكم اذا دعونا موسى الى منادمة خارج كراشي ، فانه رجل يحب اللهو والشراب

فضحك داود ، لانه كان يعلم انهم الان في فصل الصيف ، والحر في كراشي لا يطاق ، فقد لا يبعد ان يرى موسى في هذه الدعوة وسيلة للعبث وقضاء فرصة من الوقت .

ولكن تيمور عاد يبدل رأيه ، ويأمر رجاله بالانتقال الى مكان آخر تقوم فيه عين من الماء ، ثم ارسل بعض رجاله برسالة الى ملك هرات ومعهم بعض الهدايا ، وراح ينتظر قدوم رسله ، واخذ في هذه الفترة يمنع القوافل النازلة الى كراشي من الذهاب اليها

ويأمرها بالبقاء مكانها ، حتى جاءته رسله بهدايا من ملك هرات ، ودعوة منه للذهاب اليه ، وعندئذ ترك تيمور القوافل تذهب في سبيلها ، فلما وصلت هذه الى كراشي وعرف منها موسى ان تيمور يعتزم الذهاب الى هرات ، غادر المدينة الى ارض رطبة بعيدة عنها لانه لم بعد يطيق بها مقاماً من شدة الحر ، وترك ابنه مع بعض الجند للمحافظة على الحصن والمدينة .

وانتظر تيمور في مكانه اياماً ، عرف معها ان القوافل قد وصلت الى المدينة ، واذاعت خبر ذهابه الى هرات ، ثم كر راجعاً الى جهة كراشي فلما وصل الى مقربة منها اوقف مسير القوافل اليها ، وامر رجاله بتوقيف كل من يجدونه في الطريق من المزارعين والجند وغيرهم حتى لا يعرف احد بقدومه ثم راح يستعرض الحصن بنفسه حتى عثر فيه على فتحة تمكن رجاله من الدخول اليه بسرعة وسهولة وعندئذ عاد الى جماعته وامرهم بالاستعداد ، ولما اشرقت الشمس كان تيمور قد استولى على الحصن دون مقاومة ، وقبض على الحرس الذين كانوا نياماً لان احداً منهم لم يكن يتوقع هذه المفاجأة .

ولما علم رجال موسى بدخول تيمور الى الحصن ، وكانوا لا يعرفون عدد رجاله اسقط في ايديهم وجاءوا يقدمون اليه طاعتهم فتقبلها ، واحتفظ بابن موسى ولكنه ارسل عائلته اليه ، وكان هذا لا يزال يتردد خارج المدينة بين الحقول والاشجار .

١٠

على سطح العالم

اخذت شدة تيمور تزداد وتستطير بتقدم الايام ، فان التتار وجدوا فيه الرجل الزعيم الذين هم بحاجة اليه ، حتى ان بعض اعدائه من الذين كانوا يعملون على قتله وهلاكه ، مشوا اليه وجلسوا بين الامراء من قومه الذين يجلسون حوله ، قائلين :

— لقد رجعنا اليك ايها المولى ، ولن نتركك بعد اليوم

ومنهم الامير (مانجلي) وقد تمكن في المستقبل من ان يكسب معركة لسيده تيمور ، وكذلك اخذ تيمور يقيم مملكته الجديدة بشدته وقوته ، وباخلاص انصاره له وطاعتهم لاوامره .

ولم تمض سنوات قليلة حتى انضمت اكثر الجماعات التتارية الى تيمور ، وكان آخرها عشيرة الجالار التي كانت كثيرة الانصار لانها قريبة النسب من المغول ، وبذلك انهار ملك الامير حسين وسقطت سمرقند ، وهرب حسين منها الى حيث قتل كما يقول الرواة .

وعلى اثر ذلك طرحت مسألة الامارة والعرش على بساط البحث فذهب بعض الامراء المحافظين الى ضرورة مراعاة التقاليد القديمة

وانتخاب رجل يمت الى جنكيز بنسب ليكون ملكا وخانا ، ويكون تيمور نائبه والحاكم بامره ، وذهب فريق الى انتخاب تيمور نفسه دون ما نظر الى غيره وسواه ، وازداد الخلاف بين الفريقين حتى تدخل رجال الدين وكانوا يؤيدون تيمور فقام بامره وقال واحدهم والمتكلم باسمهم :

— ان شريعة محمد عليه السلام لا تسمح بان يحكم الوثني الزنديقُ المسلمَ ، وليس ابناء جنكيز خان وحفدته غير قوم لا يؤمنون بالله وبرسوله . وما جنكيز غير رجل من الصحراء مكنته الايام والقوة من حكم المسلمين ، وسيف تيمور يساوي سيف جنكيز . لقد هربتم جميعكم امام الامير حسين ، ولم تظهروا من مخابئكم الا بعد ظهور تيمور ، وهو لم يطلب مساعدتكم ولا كان بحاجة لها ، ولما كنت انا اليوم امثل الدين الاسلامي فاني باسمي وباسم زملائي من العلماء والفقهاء انتخب الامير تيمور ليكون ملكا لعموم جماعات التتار .

وايد هذه الفكرة انصار تيمور من الزعماء والقواد فوافق عليها الجميع ، وجلس تيمور على عرش جنكيز خان ، باحتفال باهر عظيم .

ولكن الشيخ زين الدين صديق تيمور وزعيم رجال الدين لم يكتف بذلك بل طلب من الامراء والقواد ان يقسموا بالقرآن ،

ليؤيدن تيمور الملك ولينصرنه وليدافعن عنه ولا يعترفن بملك غيره .

ولما انتهت حفلة المبايعة وقف الشيخ زين الدين خطيباً وقال:

هذه ارادة الله ، قضت بأن تصبح فاتحاً ، وان تزداد قوة وفتحاً وان يصيب الاسلام من فتوحاتك كل الخير والتقدم .

وبسط تيمور يده في العطاء وزاد ندى فلم يترك لديه شيئاً من مال وحرائر وماشية ، الا دفعه الى رجاله وقواده وانصاره حتى عتب عليه بعض رجاله من الامراء ورجال الدين فقال لهم :

— اذا كنت ملكا فكل ما معكم هو لي ، واذا لم اكن ملكا فما فائدة ما لدي من الاموال والخيرات .

وفي الايام التالية اخذ تيمور ينظم شؤون المملكة ، فعين الامير داوداً حاكما على سمرقند ورئيساً للديوان . وعين الامير جاكو من جماعة البارلاس حاملا للعلم . . واصبح (كيتابهاتور) من عشيرة المغول قائداً لعشرة الاف ، والشيخ علي بهاتور مثله ، وهذا الاخير عربي الاصل .

واظهر تيمور في الايام الاولى من ملكه الجديد ان احداً لن يستطيع التأثير عليه ، لقد كان كثير من المقربين كالشيخ زين الدين وغيره ، يدخلون عليه دون ما استئذان ايضاً ، ولكنه كان يستمع الى اقوالهم ثم يفعل ما يشاء وفاقاً لهواه ورأيه .

وكذلك ظهرت آثار حزمه وشدته فقد امضى امره بالبحث

عن كل انصار الامير حسين ومطاردتهم ، فطوردوا وقتلوا ، وهدمت منازلهم ، وحرقت مزارعهم ، وكذلك كان شأنه مع عشائر المغول وانصار الخان ، فانه اخذ يقذف اشياعهم وانصارهم بالفرقة بعد الفرقة من رجاله لا يترك لهم فرصة للراحة والاستعداد ، ثقة منه ان السبيل الوحيد للمحافظة على ملكه هو في مهاجمة خصومه قبل ان يهاجموه ، وكانت سياسته هذه بعيدة الاثر في نجاحه وفلاحه ، لان عشائر المغول او (الجانية) لما رأت هذا الشيطان لا يترك لها فرصة للراحة تركت حدوده وانسحبت الى ارضها في الجبال الى جهة الشمال

وفي هذه الفترة من الزمن قام بعض امراء تيمور بكثير من الغزوات عادوا في اكثرها منتصرين ومعهم الغنائم والاسلاب ، فكان ذلك يزيد في قوة تيمور ، ويدفع بالامراء الافراد الذين كانوا معتصمين بحصونهم ومدنهم الى الذهاب الى بلاطه يعرضون عليه خضوعهم ، فكان تيمور يتقبل منهم ذلك ويكرمهم ويقدم لهم الهدايا والتحف .

ولقد حدث يوماً ان ذهب الشيخ علي بهانور ، وكاتي بهانور على رأس فرقة من الجند لمحاربة فرقة من الجانية ، فعثروا عليها وقد حطت خيامها في ارض كثيرة الماء والاشجار ، يفصل بينهم وبينها نهر صغير ، فجلس القائدان يتحدثان بالخطة التي يجب اتباعها ، وبينما كان (كاتي بهانور) يتكلم وجد رفيقه الشيخ علياً لا يحير جواباً

ولا يقدم رأياً فظن ان سبب ذلك عدم موافقته على رأيه ، فقال

— ما الذي يدور في خلدك ؟

فقال الشيخ : هذه والله الطريقة التي يقاتل بها المغول .

فغضب (كاتي) وقال :

— اذن فانظر كيف يحارب المغول ،

وترك مكانه وركب فرسه وهجم على بعض رجال المغول بنفسه بعد ان عبر النهر فما كان من الشيخ علي الا ان لحق به ، واحاط بهما رجال المغول ، ولولا ان اسرع رجالهما التتار لانقاذهما ورد العدو عنهما لهلك الاثنان .

ولما عاد القائدان الى مخيمهما رجعا يتحدثان كعادتهما كأن شيئاً لم يقع ، او كأن خطر الموت لم يكن يتهددهما منذ دقائق فقط . .



١١

رجال !!

لقد كان على تيمور ان يوفق بين امثال هؤلاء الرجال وان يحملهم على طاعته والنزول عند ارادته ، وكان عليه بعد ذلك ان يدفعهم الى الموت ، فيمشون اليه باسمين ضاحكين.

وكان لا يزال محاطاً باعداء اشداء ، يرسل اليه بعضهم وفوده للسلام عليه والتعرف على قوته واغراضه ، فكان يستقبل الجميع وينعم عليهم بما لديه من حرائر وماشية فلا يغادرونه الا فرحين مسرورين.

وبين هؤلاء الاعداء (سوفي كارسم) ملك كيفاو(اورجانج) فقد بعث اليه هذا برسله فطلب تيمور من الرسل ان يخبروا اميرهم برغبته في تزويج ابنه (فاتح العالم) بابنة سيدهم ، ولكن (سوفي كارسم) رفض ذلك وعد هذا الطلب من تيمور وقاحة زائدة فقرر تيمور ان يذهب لمحاربته ، ولكن احد الشيوخ تقدم اليه بالذهاب لبلاط هذا الامير قبله واقناعه فرضي تيمور ، ولكن الامير حبس الشيخ ، فاضطر تيمور الى السير اليه ، واقتحم (كيفا) عنوة ، ثم نزل الى

(اورجانج) التي كان الامير يعتصم فيها ، ونصب عليها المنجنيق ، ولكن الامير طلبه للمبارزة قائلا :

— لماذا يقتل بعضنا بعضاً ، ليكن مصير الحرب متوقفاً على الذي يغلب رفيقه منا .

وعبثاً حاول رجال تيمور ان يدفعوه عن عزمه وعدم مبارزة خصمه بنفسه على ان يقوم احدهم بهذا الواجب ، ولكن تيمور اصر قائلا :

— لقد تحداني وهو يطلبني للمبارزة .

واتفق الرجلان على ان يتبارزا وحدهما دون ما حرس ولا اعوان ... وذهب تيمور في الوقت المعين على مقربة من الاسوار ، وطلب من الحرس ان يخبروا اميرهم بان تيمور قد حضر للمبارزة .

لقد كان عمل تيمور حماقة عظيمة ، لانه في موقفه كان مرمى لسهام اعدائه ، ولكن الامير (سوفي) لم يحضر ، فرجع تيمور ناقماً غاضباً ، فاستقبله جنده بالاهازيج واصوات الفرح ، ولم يطل امر الامير سوفي ، فانه توفي بعد هذه الحادثة بايام اثر مرض لم يمهله الا قليلا ، وطلب اهل المدينة الامان ، فعين تيمور ابنه البكر حاكما وبهذا الفتح الجديد اتسعت مملكته وعظم شأنه .

لم يكتف تيمور بما وصل اليه من عظم الشأن وضخامة السلطان ، فراح يطلب ان يضم الى مملكته كل البلاد الواقعة حولها

ولذلك بعث الى غياث الدين ملك (هارات) بان يأتي الى بلاطه ويجلس بين الامراء والقواد ، ومعنى ذلك الاعتراف ضمناً بسلطانه.

فكان جواب غياث الدين — وكان قد قام بالملك بعد وفاة والده الذي اشرنا الى شيء من امره في فصل سابق — انه يعد هذا الطلب فخراً ، وانه يرجو ارسال الامير سيف الدين ليكون دليله الى سمرقند .

فارسل تيمور الامير سيف الدين الى هارات ولكن هذا رجع بعد مدة يقول ان غياث الدين لا يفكر بالقدوم وانه يعمل على اقامة جدار قوي حول عاصمته .

فارسل اليه تيمور رسولا آخر ، فتأخر غياث الدين في ارجاعه فامر تيمور عند ذلك رجاله بالزحف .

وبعد ان استولى اولا على حصن بالقرب من (هارات)و كسر جيشاً ارسله غياث الدين ، طلب هذا الصلح فرضي تيمور به،وارسل غياث الدين مكرماً الى سمرقند ، وعاد هو اليها يحمل كل الجواهر والاموال التي كانت لغياث الدين ، ولم ينس ان يهدم الجدار الذي كان يحاول غياث الدين اقامته ، وامر بان تحمل احجاره الى المدينة الخضراء .

وبافتتاح (هارات) اتسعت مملكة تيمور لان هذه وحدها كانت تضم ربع مليون من الانفس ، ومئات من المدارس وثلاثة

آلاف حمام ، وعشرة آلاف مخزن للتجارة ، والواقع ان لوندن وباريس في ذلك العهد لم يكونا بعدان اكثر من ستين الفاً من السكان ولم يكن في لندن وباريس حمامات ، وقد اعجب التتار بالمطاحن الموجودة في هذه المملكة الجديدة والتي كانت تدار بالهواء وليس بالماء كما كان الحال عندهم .

لقد كانت كل هذه المعارك صغيرة داخلية في نظر تيمور لان الغاية منها كانت توطيد ملكه وضم البلاد التتارية بعضها الى بعض وتأليف وحدة سياسية بينها ، وكان تيمور لما جلس على العرش في الثالثة والاربعين من العمر سنة ١٣٦٩ فتكون هذه الفتوحات التي تمكن منها في وقت من الزمن قصير اول فتوحاته العظيمة التي امتدت بعد ذلك الى اطراف المعمور ...

وكان عليه بعد ذلك ان يطلق نظره الى ما وراء حدوده فاذا به يجد الحرب تشتعل في كل مكان ، واذا بالنار تلتهم الاخضر واليابس ، فكان تيمور مجبراً على المداخلة في شؤون هذه البلاد القريبة من بلاده ، محافظة على ملكه ، وقطعاً لدابر الفساد والفوضى في البلاد الواقعة على مقربة منه .



١٢

سمرقند !

لقد اصبح من حسن السياسة ان ينتقل تيمور بعاصمة ملكه الى سمرقند ، فان المدينة الخضراء وان كانت جميلة فتانة ، الا انها ليست من السعة واستبحار العمران بحيث تظهر فيها روعة المملكة وجلال الامبراطورية الجديدة التي اصبحت واسعة الحدود لا تقل مساحتها عن خمسماية ميل تضطرب في الارض من جميع جهاتها فيما لو اخذنا سمرقند قاعدة واساساً .

وقبل ان يغادر تيمور بلدته المحبوبة بنى قبة عظيمة فوق قبر والده ، وقصراً جميلا مكان المنزل الذي كان يسكنه وزوجته (الجي) واما سمرقند وشأنها وعمارتها في هذا الزمن ، فلنترك ابن بطوطه الرحالة العربي المشهور يحدثنا عنها وكان قد زارها قبل سنوات قال:

« هي من اكبر المدن واحسنها واتمها جمالا مبنية على شاطيء واد يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسقي البساتين ، وعنده يجتمع اهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ، ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر

المأكولات ، وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبيء عن علو هِمم اهلها وان كان اكثرها متهدماً ، وقد خرب كثير من عمارة المدينة ولا سور لها ولا ابواب عليها وفي داخلها البساتين ، واهلُ سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة للغريب وهم خير من اهل بخارى ، وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب ، وهو الذي استشهد حين فتحها ، ويخرج اهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته ، والتتر يأتون الى زيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك ، وعليه قبة قائمة على اربع ارجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر ، وحيطان القبة مزينة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص ، وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة ، وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة ، وفرش القبة بالصوف والقطن ، وفي خارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك ، وعلى ضفتيه الاشجار ودوالي العنب والياسمين ، وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ، ولم يغير التتر ايام كفرهم شيئاً من حال هذا الموقع المبارك بل كانوا يتبركون به ويحترمونه ويجلونه »

***

والواقع ان سمرقند كانت كثيرة المياه ، خصبة الارض ، ينعم اهلها باربعة مواسم في السنه ، وتحيط بها النواعير من جميع الجهات ، وهي نواعير تدار على الماء ، ولها اصوات رقيقة جميلة تسر السائر وتبهج المتفرج .

و كان استقبال تيمور في سمرقند حافلا عظيما خرجت البلدة كلها لاستقباله وراح اهلها يدعونه بالاسد الفاتح ، والملك العظيم ، فرحاً واستبشاراً .

وما كاد تيمور يستقر في عاصمته الجديدة حتى اخذ يعنى بانشاء الطرق ، واقامة القصور والحصون حول المدينة ، كما انه جعل لجنده منازل خارجها بين الانهار والازهار والحقول ، و كان قد نقل معه من هارات كما قدمنا كثيراً من الصناع وارباب الحرف فراح يستخدمهم في الاعمال العمرانية ، واما الحجارة للبناء والعمارة فكانت تجلب من المدن المجاورة والاماكن البعيدة بواسطة الثيران وغيرها من الحيوانات .

اما الاحتفال بزواج ابن تيمور البكر على (خان زاده) ابنة ملك كيفا فكان شائقاً حقاً ، وقد حملت العروس الى زوجها كثيراً من الهدايا ، وتقدم العريس الى زوجته بمثل ذلك ، (وخان زاده) فتاة قوية مفكرة ، لم يكن احد سواها يستطيع ان يجادل تيمور ويحاوره ، و كان تيمور يعجب بها ويقدرها حق قدرها ،

ولما ولدت ولداً ذكراً ، زادت حظوتها عنده ، وعظم امرها وسلطانها عليه ، فكانت كثيراً ما تدافع عن ابناء عشيرتها وتطلب لهم الرحمة والعطف ، فلا يرد لها تيمور طلباً ...

وتزوج تيمور زوجة الامير حسين سارة خانم لان هذا كان العادة المتبعة وهي تنتسب الى جنكيز خان ، وكانت قوية نشيطة تحب الصيد والقنص ، فكان مقامها في البلاد عظيما كبيراً ، واذا كان زوجها تيمور غائباً ، وكثيراً ما كان يترك عاصمة ملكه لغزوة او حرب ، فان احترام الجماهير والقواد والامراء لتيمور كان ينتقل في غيابه لزوجه فكانت تحسن الاستفادة من مركزها ، بلباقة سياسية زائدة .

وكانت اخبار تيمور ترد الى العاصمة يومياً بواسطة الرسل التي تحمل البريد من المقر العام الى القصر ، كما ان التحف والاسلاب التي كانت ترد الى العاصمة اثر كل غزوة قام بها تيمور كانت تدل بصراحة على انتصاراته ، واستطارة شأنه وغلبته على اعدائه وخصومه

ولقد وصل تيمور في هذه المرة بفتوحاته الى حدود المغول ، واخذ يطارد امرائهم وقوادهم ، وهو اول حادث من نوعه ، فان احداً من التتار قبل هذا العهد لم يكن يجرأ على اقتحام هذه الاماكن ، ولما عاد تيمور من غزواته هذه خرج سكان سمرقند لاستقباله وقد لبسوا السواد ، وتقدم اليه الامير سيف الدين اكبر

امرائه سناً فقبل عنان فرسه ، ووقف لا ينطق بكلمة فقال تيمور :

— هل تخشى امراً تكلم !!

فقال الامير سيف الدين :

— اني لا اخشى شيئاً ، ولكن ابنك الاكبر — فاتح العالم — قد انتقل الى رحمة ربه وهو في زهرة الحياة ، وروعة الفتوة !! والواقع ان مرض ابن تيمور لم ينقل مع البريد الى والده ، وكان ولي العهد قد بقي في سمرقند ، ولم يذهب مع والده في هذه الغزوه ، فسكت تيمور برهة ثم قال :

— اركب جوادك ، وقف حيث يكون مقامك

وعندئذ تحرك الموكب ، وقد استطار الخبر المحزن الى كل افراد الجيش ، فدخلوا العاصمة بين السكوت والاسى ، ومضى تيمور ليله في اسى وحزن فقد كان يحب ابنه الاكبر حباً عظيماً ، ولو استطاع لفداه بكل ملكه . وفي الليل نفسه اصدر امره بكسر الصناجات التي كانت لابنه ، والتي كانت تصوت معلنة بقدومه وايابه حتى لا تستعمل بعده ابداً .

١٣

في قلب البلاد الروسية !!

لكي نتفهم الاحداث التي سنتناولها في هـذا الفصل نرى من الحكمة ان نعود في تاريخنا هذا الى مئة سنة خلت ، ونتحدث عن (قبالي خان) والامبراطورية المغولية في عهده ·

كانت فتوحات جنكيز خان من الخطورة والسعة وبعد الشقة بحيث كان من المستحيل على شخص واحد ان يحتفظ بها وان يحكمها بنفسه ، ومع ان قبالي خان ابنه الاصغر كان يسمى (الخان الاكبر) وكان من حقه ان يحكم اخوته الباقين ، الا انه في الواقع لم يكن يحكم غير بلاد (كاثي) ومن مقره في (كابولي) كان يسيطر على صحراء (كوبي) والصين وكوريا ، بينما انصرف اشقاؤه الباقون الى الخصومة فيما بينهم ·

ولكن هذه الخصومات لم تكن تعوق التجارة ، فقد كانت الطرق مفتوحة والقوافل تسير بامان بين الصين وموسكو وبلاد التتار وبغداد ، حتى ان ابن بطوطة العربي صاحب الرحلات المعروفة

باسمه لم ير في طريقه شراً لما راح يقطع العالم من اقصاه الى اقصاه ، وكذلك قام احد آباء الكنيسة برحلة مسيحية في سنة ١٣٤٠ موفداً من البابا بنوا الثالث عشر الى بلاط الخان في (كاثي)

وفي سنة (١٣٠٥) كان (ايل خان) يحكم البلاد من فارس الى الهند ، حتى ان ادورد الاول ملك انكلترا ، وجاك الثاني ملك الاراجون ، وامبراطور القسطنطينية ، وملك ارمينيا كانوا يرسلون الوفود الى مقره تقدم له الاحترام بصفته زعيم المغول وامبراطورهم .

ثم دالت الايام فضعف شأن هذا الخان وسقطت مملكته وتمكن الصينيون من طرد المغول من بلادهم الى ما وراء السور العظيم وذلك في عهد الخان الذي يحكم في (كاثي) وانقسم الانسباء على بعضهم ، فضعفت قوتهم العسكرية ، واصبحوا لا يستطيعون التقدم الى الحدود الصينية .

ثم تمكن المغول من لم شملهم في (شا كاتي) حتى تمكن نائب الملك (كاز كان) كما قدمنا في فصل سابق من الاستقلال عنهم في سمرقند وفي سنة ١٣٧٥ تمكن تيمور كما يعلم القراء من طردهم الى الجبال

وبين سنة (١٣٧٠ — ١٣٨٠) كانت الامبراطورية المغولية قد سقطت الى ربعها ، وكانت هذه البقية الباقية تقيم شمالا وشرقاً من مملكة تيمور ، وكان يحكم هذه المملكة قبلا (جوشي) الابن الاكبر لجنكيز خان ، ثم باتو العظيم ابنه ، وقد تمكنت هذه

المملكة من المحافظة على نفسها لانها كانت بعيدة وقوية و كانت منازلها تغمرها الثلوج ، فيصعب الوصول اليها ويضيع السالك فيها

ولما نشأ تيمور كانت هذه المملكة في فجرها وعظمتها و كان رجالها اقوياء اشداء تمرنوا على الغزو والحرب ، و كانوا كثيراً ما ينزلون على المدن القريبة منهم يمعنون في سكانها نهباً وسلباً

والواقع ان هذه المملكة كانت مؤلفة من طوائف شتى من المغول والروس والتتار والترك والارمن وغيرهم ، و كان اهلها يحكمون الامراء الروس دون ان يقيموا بينهم ، فكان هؤلاء يدفعون للخان الجزية المفروضة ، ويأتون الى بلاطه لتقديم الطاعة .

اما عاصمتهم فكانت تسمى (ساري) وهي واقعة على نهر الفولكا في قلب البلاد الروسية المعروفة عندنا اليوم . و كانوا يسيطرون على السياسة الاوربية الشرقية في عهدهم ، حتى ان جيشاً منهم في الماضي تقدم الى بولونيا نفسها وعلى رأسه احد (الخانات) الذي كان متزوجاً بامرأة يونانية ، و كان يأتي الى بلاطهم كثير من تجار فينيس وايطاليا وغيرهم

ووقع يوماً ان اصطدم هؤلاء بالقائد ديمتري امير موسكو فكسرهم ولكنه اصيب بخسارة عظيمة في الرجال والارواح فلم يفده نجاحه .

وبعد مدة هرب احد امراء بلاد القرم ويدعى (تو كتاميش)

الى بلاط تيمور وكان من اتباع الخان الذي كان يحكم (ساري) فجاء بعض رجال الخان في طلبه من تيمور لانه قتل ابن احد كبارهم ، وزاد الوفد على ذلك قائلا « انه اذا لم يسلم تيمور هذا الامير فان الحرب واقعة بين المملكتين »

فاجاب تيمور رئيس الوفد قائلا :

— ان توكتاميش قد جاء يطلب حمايتي ، وليس بطوقي تسليمه فاذهب الى (الخان اورس) وقل له اني مستعد لمحاربته .

ورأى تيمور ان يستفيد من توكتاميش فارسله يغزو بعض قبائل (الخان اورس) ملك ساري فلم يوفق ، ثم مات الخان واخذ توكتاميش يطالب بالعرش ، وايده في ذلك بعض العشائر ، وشد ازره تيمور ببعض رجاله حتى تمكن من الجلوس على العرش وحكم المملكة التي كان طريداً منها .

ولكن (توكتاميش) لما وصل الى العرش اصبح رجلا غير ذلك الامير الهارب الذي جاء يطلب مساعدة تيمور ، خصوصاً وقد رأى من ثروة سمرقند ووفرة اموالها ما جعله يحسد تيمور على النعمة التي يتمتع بها ، ويفكر بالاستيلاء عليها ، وراح يستعد لذلك استعداداً عظيما ، ثم هاجم حدود تيمور ونزل منها الى مملكته يروم الوصول الى سمرقند ، وكان تيمور في جهات خراسان فما ان جاءه الخبر حتى اسرى برجاله ، وكان ابنه (عمر شيخ) يحارب

رجال تو كتاميش محاربة شديدة ، ويقف في وجوههم ببسالة نادرة ولما عرف تو كتاميش بقدوم تيمور أسرع الى بلاده بعد ان خرب في طريقه كثيراً من المدن والمزارع .

وعلى اثر ذلك ظهرت بعض الفتن في جهات (كيفا) وغيرها ، فان انسباء « كانزاده » زوجة ابن تيمور الاكبر الذي اشرنا الى خبر موته رأوا الفرصة سانحة للاستقلال ، فانصرف تيمور لاصلاح الحالة وتهدئة الفتن ثم جمع اليه القواد الذين حاربوا تو كتاميش ، فاثنى على الذين اظهروا شجاعة في الحرب ، وعاقب الذين هربوا .

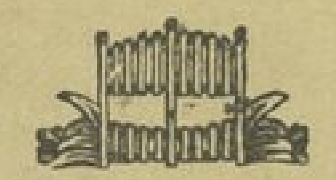
ولكن غياب (تو كتاميش) لم يطل كثيراً ، فانه تقدم نحو مملكة تيمور بجيش عظيم ، ولم يكن لدى تيمور غير فرقة صغيرة من جنده لان القوات الباقية كانت تحارب الثوار في جهات كيفا وغيرها ، فنصح له امراءه وقواده بالرجوع الى سمرقند يجمع فيها رجاله وجنده ثم يهاجم الاعداء ، وهذا يعني ان يترك تيمور حدوده الشمالية يمعن فيها تو كتاميش وجنده سلباً ونهباً مدة من الزمن .

ولكن تيمور لم يكن من الرجال الذين يتركون بلادهم عرضة للسلب والنهب ، لذلك امر جنده بالتقدم نحو جموع تو كتاميش وبدلا من ان يهاجمه وجهاً لوجه راح يدور خلفه ليوهمه ان هناك قوة كبيرة قادمة اليه من وجهه ، وزاد في الجرأة فاخترق جناح خصمه فلما رأى هذا ما جرى بجناحه وعرف ان غاية تيمور هي تطويقه

وان هناك قوة كبيرة تتقـدم نحوه غير التي يقودها تيمور رجع مسرعاً لبلاده ، مخافة ان يتمـكن تيمور منه ، فيذهب ورجاله ·

وعلى اثر ذلك راح تيمور بجنده الى جهات كيفا (وارجانج) وهاجم المدينة بقوة وعنف ، وامر جنـده باستباحتها فوضعوا فيها السيف ، واعملوا فيها النار ، ونقل من بقي من سكانها الى سمرقند ·

ثم راح يحارب الجاتية من المغول الذين كانوا قد رفعوا علم الثورة بدورهم فاجلاهم عن البلاد الى ما وراء الجبال فلم تقم لهم قائمة الا بعد سنوات · ولما انتهى تيمور من توطيد السلام في مملكته راح يفكر في مهاجمة (توكتاميش) بنفسه وفي ارضه ·



١٤

معركة فوق الثلوج

وهي فكرة فيها كثير من الجرأة ، وفيها من المخاطرة شيء غير قليل ، فان نابليون لما مشى الى ارض الروس بعد اربعماية سنة من هذا العهد تمكن من الاستيلاء على موسكو ، ولكنه فقد اكثر جيشه الكبير ، فقد كان من المستحيل على جيش مهما كثر عدده وتعددت عدده ان يدوخ بلاد الروس ويخرج سالماً لوعورة الارض وصعوبة المفاوز ، وقلة الاقوات وبعد الشقة ، و كثرة الثلوج.

ولم يكن تيمور قد اصطدم مع هذا الجيش الخليط من جميع امم العالم في معركة حاسمة ، وقد كان يعرف ان جيوش خصمه اكثر عدداً واقوى على احتمال مشقات البرد والثلوج من جنده ، لانهم يعيشون في هذه البلاد منذ مئات السنين بينما جيوش تيمور لا تعرفها الا عندما تريد غزوة على حدودها

وكان عليه ان يجد طريقاً يقتحم فيه هذه الصحراء المليئة بالثلوج وكان عليه ان يحمل معه ما يكفيه من الذخائر والمؤن ولم يكن باستطاعته ان يحمل منها اكثر من حاجة شهرين ، وكان

عليه ايضاً ان يصطدم مع جند خصمه حالا وان يضطر خصمه لهذا الاصطدام قسراً ويجب ان تكون المعركة فاصلة ، ومصاير هذه المعركة تكون خطرة جداً قد يهلك فيها تيمور وجيشه. وموت في ساحات الوغى خير من الهلاك بين الثلوج.

ولكي نفهم صعوبة الوصول الى هذه البلاد التي كان يقيم فيها توكتاميش وجنده علينا ان نذكر ان القيصر بطرس الاكبر ارسل جيشاً الى الجنوب سنة ١٧١٦ وكان عليه ان يمر في هذه البلاد التي نتناول الحديث عنها لمحاربة سكان كيفا وبعض التركمان فهلك فيها الجنرال الروسي البرنس بكوتوفيتش مع اكثر جنده ، وأُخذ الباقون اسارى ، وكذلك كان مصير جيش آخر بعد مئة سنة بقيادة الكونت بيروفسكي فقد رجع جنده بعد سنة من هذه الرحلة وقد هلك اكثره ومات عشرة الاف جمل ومثلها من خيل عربات الزحف ونقل الذخائر.

وماتزال هذه الصحراء الاسيوية صعبة المسالك شديدة الخطر على كل من يحاول الدخول فيها ، فان راح تيمور يقصدها بطريق الجبال فلا يبعد ان يصل الى عاصمة (توكتاميش) ولكن هذا لايمنع نزول عدوه الى بلاده واحتلال سمرقند في الوقت نفسه ، والواقع ان تيمور كان ينظر الى احداث زمانه وموقفه ومصاير ملكه بعين الناقد الحذر ، لذلك كان يعلم انه لن يكون مطمئناً الى سلامة ملكه

مادام هذا العدو يتحين الفرص لغزوه ومهاجمته على حين غرة، ولذلك كان شعاره في سياسته الحربية ان يكون في مكان الموقعة مع عشرة من الجند، بدلا من ان يكون بعيداً عنها ومعه عشرة آلاف، ويجب ان يسرع لمحاربة خصمه قبل ان يجمع هذا جموعه، كما انه لا يصح تجهيز حملة كبيرة لا يستطيع قائدها ان يحمل لها معه ما تحتاجه من الزاد والذخائر.

ولذلك تقدم تيمور من خصمه بشيء كثير من الحذر والسرعة فانتقل من حصن الى آخر من الحصون القائمة على الحدود حتى اضطرته الثلوج الى التوقف فقبع في مكانه منتظراً انتهاء فصل الشتاء، وفي هذا الوقت جاءه رسل من خصمه يقدمون له الهدايا ويقولون بلسان توكتاميش اميرهم:

— ان الامير يعتذر له عن الخطأ الذي وقع منه وانه يريد ان يعقد الصلح معه.

فاجاب تيمور الرسل:

— لما جائني اميركم هارباً ساعدته بالرجال والمال على (الخان) وارسلت معه كثيراً من جندي لكي يجلس على العرش، وقد هلك بعض جندي بسبب ذلك، فلما اصبح قوياً تناسى خدماتي له واقتحم بلادي يهدم مدنها ويقتل اهلها، ثم ارسل جيشاً ثانياً لمحاربتي، فلما اخذت في التقدم نحوه ارسلكم قائلا: انه يريد الصلح، وانا في

الواقع لا اؤمن كثيراً بعهود اميركم ، ولكنه اذا كان يريد الصلح حقاً فما عليه الا ان يرسل وزيره (علي بك) للاتفاق والتفاهم

ولكن علي بك لم يأت ، فتقدم تيمور بجنده ، بعد ان ارسل نساءه الى سمرقند مع جند للمحافظة عليهن . وظل الجيش يتقدم على الثلج ، وقد استعد تيمور كل الاستعداد ، فكان كل افراد جيشه يركبون الخيول ، وكانوا كلهم يلبسون الخوذة ، ومع كل فرد منهم سلاح كثير ، وكان البرد شديداً ، والجيش مقسم الى اقسام يرأس كل قسم امير ، ومعه الامر ان لا يبتعد كثيراً عن رفاقه ، حتى وصل الجيش الى ارض كانت طلائع الجيش قد اشارت الى انها صالحة للنزول وضرب الخيام ، وهنا بدأت مظاهرة عظيمة ، فقد اخذ تيمور يستعرض جيشه وهو يمر امامه يهزج ويهتف ، والواقع ان هذه المظاهرة كانت استعراضاً عاماً تشددت بها قلوب الجند وعادت بواسطتها الطمأنينة الى النفوس .

ولما اقبل الليل جلس تيمور في خيمته يستمع الى تقارير قواده فيما يتعلق بحالة الجند ، وعدد المرضى وغير ذلك ، وكان على كل فرد منهم ان يكون جلداً قوياً ، والا فالموت نصيبه لان الجيش لم يكن ليتوقف بسبب ضعف احد افراده .

ومضت ايام والجيش يتقدم حتى وصلوا الى ارض فيها ماء وعشب كثير ، فنزل الجيش فيها للاستراحة ، وصعد تيمور مع

بعض قواده الى جبل عال يقوم بالقرب منها ينظر الى الارض المنبسطة حوله ٠

وفي الايام المقبلة قل الطعام فاخذ الجيش يكتفي بالقليل منه، وراح الامراء والقواد انفسهم يأكلون كبقية افراد جندهم ، واما الخيول فكانت احسن حالا ، لان الكلاء كان كثيراً،ولكن الحالة نفسها كانت تستدعي الكثير من التفكير ، حتى ان امراء تيمور نفسه اخذوا يفكرون بمصيرهم وما تخبئه لهم الايام المقبلة ٠

ولكن الاحوال عادت فتحسنت واخذ الجند يقعون على كثير من الحيوان فيعمدون الى صيده ويأكلونه وبذلك اخذت تتجدد قوى الجند وعاد تيمور يتقدم بهم الى الامام ٠

***

وبدأ الضباب يظهر امام الجيش ، والواقع انهم وصلوا الى بلاد يسميها ابن بطوطة الرحالة العربي المشهور (بلاد الاشباح) لان اهلها لا يظهرون الا في الليل، واغرب من ذلك ان الجيش لم يلاق في طريقه انساناً حتى الان ، وكان تيمور يحس ان عدوه قريب منه فارسل ابنه (عمر شيخ) على رأس عشر بن الفا من جنده للاكتشاف والاستطلاع ٠وبعد ايام جاءت الرسل تقول انهم عثروا بالقرب من نهر كبير على آثار نار مما يدل على ان بعض فرق العدو كانت في

هذا المكان ، فاسرع تيمور الى حيث النهر المذكور ، وارسل بعد ذلك احد رجاله من الذين اشتهروا بمعرفة الاثار للاستطلاع بدوره ، فتمكن هذا من القبض على احد الفرسان فعاد به الى تيمور ولكن الاسير قال انه لا يعرف شيئاً عن توكتاميش ، وانه رأى عشرة فرسان فقط يسيرون نحو الغرب ، فارسل تيمور عدداً من رجاله للقبض على الفرسان العشرة المذكورين ، فلما عادوا بهم ذكروا ان توكتاميش لا يبعد عن المكان الذي فيه تيمور غير اسبوع فقط .

ولو ان احد القواد المعاصرين ابصر تيموراً يتقدم نحو اعدائه لادهشه ما يراه ، ذلك ان تيمور كان يعلم ان عدوه يعرف اخباره كل المعرفة وان رجاله يستطلعون كل حركة يقوم بها جيشه، فرأى من الحكمة الاسراع نحوه ومباغتته .

وليس بمقدور المؤرخ ان يصف هذا الجري السريع الذي كان يدفع تيمور رجاله اليه، فقد كان ذلك فوق الطبيعة وفوق قوة الانسان في هذه الاصقاع النائية ،وليذكر القارىء ان تيمور كان يقود مئة الف من الجند ، وان حاجة هذا الجند الكبير الى الغذاء والماء لم تكن من الامور التي يسهل الحصول عليها في مثل هذه البلاد المنقطعة، ولكن مالنا ولهذا كله ، يكفي ان نقول ان تيموراً وصل بطلائعه اخيراً الى مقربة من طلائع خصمه، ويجب ان نذكر ايضاً ان

تيمور كان يمنع جيشه من اشعال النار في الليل مخافة ان يعرف عدوه بوجوده ومكانه ، حتى اقترب الجيشان بعد ان سار جيش تيمور في هذه البلاد ما يقرب من خمسة اشهر ، وبعد ان قطع ١٨٠٠ ميلا وكم كان عجب جيش توكتاميش عظيما لما رأوا جند التتار يقيمون خيامهم في السهل امامهم كانما هم قد اتوا لزيارة لا لحرب هائلة يتوقف عليها مصير احد الجيشين ·

وتوسد امراء تيمور الارض امامه في خيمة كبيرة ، ووقف خدم تيمور ورسله امام بابه ينتظرون اوامره ، وجلس تيمور يلاعب نفسه بالشطرنج وهو متقلد ثيابه الرسمية ·

وكان جيش تيمور قد اخذ مكانه وفاقًا لخطة مليكه فكان مقسما الى سبع فرق وكل فرقة فبعث في مكانها الذي عين لها ·

وكانت اضعف الفرق الفرقة التي اخذت مكانها في وسط الجيش ، واقواها — والتي فيها الشيخ علي بهانور وغيره من الامراء الاقوياء — في الجناح الايسر · وكان على الجناح الايمن مهمة الهجوم في صباح اليوم التالي ·

واصبح الصباح فارسل تيمور الى الجناح الايمن قوة اخرى يعززه بها ، ولما صدر الامر بالهجوم انطلق الجناح الايمن على خيله كالسهام فاقتحموا القوة التي امامهم ، فاضطربت وارتدت وعندئذ اصبح التلاحم عامًا ، ووقف تيمور بنفسه يرقب تطور المعركة

عن كثب فاذا رأى ضعفاً في مكان امده برجال من عنده ، حتى شاهد توكتاميش نفسه يندفع نحو الجناح الايسر فيرده بقوة العدد وعندئذ امر تيمور رجاله وكل ما لديه من الاحتياطي بالهجوم على جناح توكتاميش نفسه ، فهجموا كالذئاب الكاسرة ، فمزقوا ما امامهم ، واحس توكتاميش بالخطر القريب فلوى عنان فرسه وولى هارباً يتبعه بعض قواده وانصاره ، وبهربه سقط علم جيشه وانهزمت قواته ...

ولكن التتار لم يكونوا من الذين يرحمون عدواً هارباً ، فقد انطلقوا وراء الجند ، ولم يبق مع تيمور نفسه الا ثلث جيشه ، واما الباقي فاخذ يطارد العدو مطاردة انقلبت الى مجزرة هائلة يقول بعض المؤرخين ان القتلى فيها بلغوا مئة الف من الانفس.

وكانت غنائم تيمور عظيمة فقد ملك كل ذخائر عدوه واسلحته واقواته ، واخذ بعد ذلك يتقدم بجنده الهوينا ، وقد غمر المرح والسرور جيشه بالظفر العظيم الذي ناله .

وانطلق الجيش يسلب وينهب حتى لقد اصبح كل واحد من افراده غنياً فوق حاجته ، وكان الجيش قد وصل في هذا الوقت الى مكان كثرت اشجاره على نهر الفولكا ، وبعد ايام ترك تيمور جيشه برئاسة الامير سيف الدين وانطلق هو مع حاشيته الى سمرقند التي خرجت الى خارج الاسوار لاستقباله بعد غياب طال

ثمانية اشهر ·

ولكن توكتاميش عاد الى الانتقاض كرة اخري بعد ثلاث سنوات فرجع اليه تيمور فكسره — وكاد تيمور يهلك في هذه الحرب — ومزق شمل رجاله فهرب بعضهم وانضم اليه آخرون، وانقض بعد ذلك تيمور على عاصمة توكتاميش (سارى) فامر باحراقها بعد ان طرد اهلها منها فقضوا بردآ وجوعاً ، ثم سار الى غيرها من البلاد فكان مصيرها مصير العاصمة ، ثم اتجه بعد ذلك الى موسكو ولكنه لم يدخلها واكتفى بان حرق مدينة (دون) وكان اكثر سكانها من التجار الاوربيين ·

وعاد تيمور بجيشه يمشي على انقاض مملكة المغول ، ولكنه اراد ان يسير الى عاصمة مملكه بطريق جديد ، فاتبع طريقاً لايدع فيه قوماً الا سلبهم ، ولا حصناً الا هدمه ، ولا جماعة الا ضربها بالسيف حتى نزل بلاد فارس فاستولى على حصني تكريت وكالات وقتل جندهم وامرائهم ثم هدم الحصنين ، وقد كان الحصنان من المناعة بمكان عظيم ·

ثم مشى في بلاد خراسان بجنده وجيشه ، فدفعت له الجزية اربع عشرة مدينة كنيسابور وغيرها

ولكن هذه الفتوحات العظيمة قد ذهبت بالكثير من رجاله وقواده الكبار فقد مات ابنه عمر شيخ ، وهلك الشيخ علي بهاتور

اشجع قواده ، وقتل كيتابهاتور .

ولما بلغ تيمور خبر موت ولده قال « لقد اعطاني الله اياه ، ثم اخذه مني » وامر جنده بالعودة الى سمرقند .

وحين وصل تيمور الى المدينة الخضراء راح يقضي فيها اياماً في القصر الذي انشأه فيها ، لا يتحدث الى احد وهو دائم التفكير ، كثير السكوت يلعب الشطرنج طيلة نهاره واكثر ليله .



١٥

في بلاد فارس

لم يكن تيمور قد اطلق بصره الى الجنوب حيث تقوم بلاد فارس ، ولعله كان يعتقد ان هؤلاء من المسلمين فلا يصح له ان ينالهم بسوء ، ولكن الحالة في بلاد فارس لم تكن تبعث على الرضاء فقد كان ملوكها وامراؤها لا يفكرون بغير مصالحهم الشخصية ، والانصراف الى الوان المرح والعبث واللهو يتركون البلاد وشأنها لا يعملون على تحسين الحالة والامان واستبحار العمران .

وفارس بلاد جميلة غنية ، غنية بزراعتها وتجارتها ، وما جمعه امراؤها فيها من ذهب وفضة ومال وجواهر ، والواقع ان خصومة امرائها وثوراتهم في سبيل العرش ، كانت من الاسباب الفعالة في انهيار الحالة الروحية ، وتضعضع الشمل ، وانقسام البلاد الى فرق وجماعات ، ولست ادري اذا كان صحيحاً ما يشاع من ان احد امرائها قتل شقيقه في سبيل العرش ، وراح يقول بعد مقتله ضاحكا

— لقد اقتسمنا العالم ، هو تحت الارض وانا فوقها . . .

ثم ان الحياة العائلية لم تكن مما يرضي ، فقد كانت السيدة في هذا العهد تلك التي يكثر عشاقها ومحبوها ، واما المرأة الحرة فقد كانت شيئاً ليس يعنى به احد من الناس .

وهناك جماعة الشيوخ والصوفيين الذين كانوا يتشاحنون دائماً ويتخاصمون ابداً ، وهناك اصحاب الثروات الذين كانوا يصرفون اوقاتهم في اللهو والشراب واستماع الغناء والشعر ، وكان الشاه في عهدنا هـذا — وهو صاحب حافظ الشيرازي الشاعر المشهور — ينصرف الى استماع الشعر ولعب النرد والشراب ، فلما احس بقرب وفاته ، ذكر تيمور وكيف انه في ماضيات الايام تعاهد واياه على السلام ، فراح يأمر رجاله بانشاء قبر ضخم يرقد فيه بعد وفاته ، وراح يكتب الى تيمور قائلا :

— ان عظماء الرجال يعرفون في الحياة عدم الاستقرار والتقلب والتبدل ، والمفكرون منهم لا ينصرفون الى الوان الحياة الضاحكة لانهم يعلمون ان كل هذا زائل ، واما المعاهدة التي بيننا ، فاني معتزم المحافظة عليها الى الابد ، لاني اعـد صداقتكم من اعظم الفتوحات في حياتي الملكية .

وان اقصى مناي ان تكون هذه المعاهدة بيدي يوم القيامة لكي لا تقف امامي قائلا : انك قد خنت العهد وحنثت بالوعد .

وبما اني سأكون قوياً بـين يدي الله عز وجل ، فاني مطمئن

الى اني لم اقم بعمل اخجل منه ، الا هذا العبث الذي انصرفت اليه في حياتي ، وهو من الامور التي يضطر اليها المرء اضطراراً

اني اموت مطمئناً وانا اسأل الله ان يؤازركم ويؤيدكم ، وكل رجائي ان تعطفوا على ولدي زين العابدين الذي سيجلس على العرش بعدي ، وان تصلوا عن روحي ، وليغفر لي الله ذنوبي »

ويظهر ان نسخة من هذا الكتاب قد ارسلت الى سلطان بغداد في ذلك الحين ، ولما توفي هـذا الشاه قام عشرة من الامراء يتنازعون عرشـه ، فتغلب واحد على اصفهان ، وآخر على شيراز وثالث على بارس ، والباقون على البلاد الباقية ، وراحوا يضربون باسمهم الدراهم ، ويضعون الضرائب ويختصمون دائماً وابداً .

وفي هذه الفترة سنة ١٣٨٦ نزل تيمور الى بلاد فـارس على رأس سبعين فرقة من جنده ، حتى اشرف على اصبهان ، التي قال عنها ابن بطوطه :

« مدينة اصفهان من كبار المدن وحسانها الا انها الان قـد خرب اكثرها بسبب الفتنة التي بها بين اهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الان فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظـير له يسمونه بقمر الدين ، وهم ييبسونه ويدخرونه ، ونواه يكسر عن لوز حـلو ومنها السفرجل الذي لا مثيل له في طيب الطعم وعظم الجرم . . .

واهل اصفهان حسان الوجوه والوانهم بيض زاهرة ، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم في الضيافةواهل كل صناعة يقيمون على انفسهم كبيراً منهم »

وكان تيمور لا يريد حربا ، وانما جاء لمعاقبة بعض الامراء الذين احتفظوا ببعض رسله دون ما سبب ، ثم انه كان يرقب اختلاف الامراء في بلاد فارس ، فلما رأى استفحال الشر ، رأى ان يكون له نصيب من الغنيمة .

وما كاد تيمور يصل ويحط رحاله خارج المدينة حتى خرج كبارها اليه يسلمون عليه ويعرضون طاعتهم وخضوعهم ،فطلب تيمور منهم الجزية واعلمهم انه يغفر عن المدينة وسكانها .

فرضي القوم بذلك وجمعوا من اصبهان كثيراً من المال قدموه لتيمور فرضي به ودخل المدينة باحتفال عظيم ، ولكن حدث في الليل ان اختلف بعض جنود التتار مع بعض سكان اصبهان،فصاح هؤلاء « يا لغيرة الاسلام » - وكان الفرس يكرهون التتار كرهاً عظيما - وثارت الخواطر وخرج الناس من بيوتهم واشتبكوا مع الجند ، فقتلوا منهم عدداً ، ثم اقفلوا مدينتهم واعتصموا بها .

وغضب تيمور لما حل ببعض جنده ، وامر جيشه باقتحام المدينة فاقتحمها ، وامر كل فرد من جنوده بان يحمل اليه برأس احد الفرس وكان عدد جنده سبعين الفاً ، وبهذه الطريقة الهائلة هلك من سكان

اصبهان ما يقرب من سبعين الف نسمة في يوم واحد ٠

وعلى اثر ذلك ملك تيمور كل بلاد فارس ودفعت له الجزية كل المدن ، وصار الخطباء يخطبون باسمه في الجوامع ، ثم عين تيمور ابنه ميران شاه حاكما على بلاد فارس ، وكان هذا الشاب مختل الشعور ، فامعن في البلاد سلباً ونهباً وهدماً حتى لقد كان يأمر بهدم المساجد والمستشفيات والمدارس ، وكان التتار يفعلون ما يأمرهم به لانه ابن ملكهم ، حتى ضاق رجاله به ذرعاً ، وشكته (خانزاده) زوجة ابن تيمور الاكبر المتوفي بانه حملها الى فراشه عنوة فامر تيمور بقتله ، ثم عفا عنه وجرده من كل امتياز وصلاحية واصبح شأنه شأن غيره من الناس ٠



١٦

الامبراطورية

بلغ تيمور سنة ١٣٨٨ الثالثة والخمسين من عمره ، وهو يحكم امبراطورية واسعة الاطراف كثيرة الثروة ، بعيدة الحدود ، وان كان في الواقع لا يسمى امبراطوراً بل اميراً ، وان كان ايضاً لا يعد من شرف النسب ورفعة المقام بمقام الخان من سلالة جنكيز ، والواقع ان هذه الامبراطورية الواسعة لم يكن لها اسم ، فقد كان الخصوم والاصدقاء يكتبون الى تيمور رأساً ويسمون مملكته باسمه ، وقد يطلق عليها بعضهم اسم البلاد التي تقوم العاصمة فيها فيدعونها مثلا « امبراطورية ما وراء النهر »

ولقد قامت امبراطورية تيمور على تضحية رجاله في سبيله ، وهؤلاء القوم كانوا جماعات غريبة همها ان تغزو وتحارب ، وهي دائما تؤيد الرجل الذي يستطيع ان يقدم لها هذا الغذاء الحربي ، فقدمه لها تيمور فمشت خلفه ، وقدم لها ايضاً الاسلاب والغنائم فاسرعت في جريها تؤيده وتعززه وتأتمر بامره ، قبائل وجماعات ليس عليها مسحة من الثقافة والحضارة ، كثيرة الايمان بحربتها ،

شديدة الدفاع عن تقاليدها.

قال ابن عربشاه يصف رجال تيمور : كان جيش تيمور مؤلفاً من رجال توران، وابطال ايران، وغور تركستان وفهود سجستان، وصقور الدشت والخطأ، ونسور المغول، وكواسر الجيتا، وافاعي خجند، وثعابين ابد كان، وهوام خوارزم وجوارح جرجان، وعقبان صغانيان، وضواري حصار شادمان، وفوارس فارس، واسود خراسان، وضباع الجبل، وليوث مازندران وسباع الجبال وتماسيح رشمدار وطالقان، واهل قبائل خوز وكرمان، وطلس ارباب طيالس اصبهان، وذئاب الري وغزني وهمدان، وافيال الهند والسند وملتان، وكباش ولايات اللور، وثيران شواهق الغور، وعقارب شهرزور، وحشرات عسكر مكرم وجندي سابور، مع ما اضيف اليهم من اعيار الخدم، وفواعل التراكمة والاوباش والحشم وكلاب النهاب من رعاع العرب وهمج العجم، وحثالة عباد الوثن، وانجاس مجوس الامم مما لا يكتنفه ديوان ولا يحيط به دفتر حسبان !!»

وحين كان يستولي تيمور على احدى الممالك كان يعين لها حاكما احد ابنائه او امرائه، فتصبح هذه المملكة قسما من الامبراطورية تدفع الجزية وتقوم بتقديم فروض الطاعة، واما امراؤها وقوادها فكانوا ينقلون الى سمرقند حيث يعين لهم مقام في البلاط، فاذا

احدثوا ثورة بعد ذلك سجنوا وحكم عليم بالموت·

وقد اهتم تيمور بطرق المواصلات فعمر الجسور وانشأ الطرق واقام فيها حراساً للمحافظة في ايام الشتاء حيث تكثر الثلوج والامطار ، وكان هؤلاء الحراس يسألون عن كل جمل او فرس او غيره يسرق من القوافل التي تمر في مناطقهم ، كما ان القوافل كانت تدفع جزية معينة لقاء هذه المحافظة التي يقوم بها جنود تيمور ، واما الماء فكانوا يجلبونه بمجارير خاصة من منابع بعيدة·

وكان في هذه المحطات خيول جاهزة ، فكان في بعضها مئة رأس وفي غيرها اكثر من ذلك ، حتى اذا اراد تيمور ان يعود مسرعاً وجد في المحطات ما يحتاجه من الخيل القوية السريعة كما ان اصحاب البرد ورسل تيمور كان يستعملون هذه الخيول لنقل الاخبار بسرعة من مكان الى آخر ، وكان تيمور نفسه يفضل رسله الذين يركبون الليل والنهار للوصول اليه يحملون له الكتب والاخبار ولو كان في ذلك هلاك خيولهم ، بدلاً من الذين يفضلون العناية بخيولهم ، فيتأخرون اياماً ، ولا يسرعون الا بمقدار·

وكانت الرسل ترد بكثرة على تيمور من مختلف المدن ومن القواد والامراء وهذا يدل على عناية تيمور العظيمة في التعرف على اخبار مملكته الواسعة الاطراف · وكانت كل هذه الاخبار صحيحة لان احداً لم يكن يجرأ على ارسال الاخبار المغلوطة ، فان جزاء

ذلك الموت .

وصف ابن بطوطة كيف كان يرسل البريد من بلد الى اخر فرأينا ان تنقل عنه ذلك قال :

« البريد صنفان ، بريد الخيل ، و بريد الرجالة ، فاما بريد الخيل فيسمونه الولاق (اولاق) وهو خيل تكون للسلطان او الحاكم او الامير في كل مسافة اربعة اميال . . .

واما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد ، وقد يكون اقل من ذلك الى الثلث ، وترتيب ذلك ان يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا اوساطهم ، وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين باعلاها جلاجل من نحاس ، فاذا خرج البريد من المدينة اخذ الكتاب باعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الاخرى وخرج يشتد بمنتهى جهده ، فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له ، فاذا وصلهم اخذ احدهم الكتاب من يده ، ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى المحطة الاخرى ، ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه ، وهذا البريد اسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة من مكان الى آخر وفاقاً لرغبة الامير او الحاكم او من يقوم مقامه . »

وكان الجند يتناولون راتباً معيناً ، ولم يكن يسمح لاحدهم بالتعرض لغيره من السكان .

وكان التجار يدفعون ضريبة على بضائعهم ، وكان هذا مورداً عظيما لان اكثر القوافل جعلت وجهتها مملكة تيمور خصوصاً وان الحكام في مصر كانوا يظلمون التجار ويكثرون من سلبهم ، وكان التجار يأتون من القسطنطينية الى بلاد فارس فسمرقند فبلاد الهند، ومن البحر الاسود الى خليج فارس الى خراسان .

واما التجارة في البحر فكانت ضعيفة ، وكانت بايدي العرب والصينيين .

وكان تيمور قد وصل بحدوده الى جهات الموصل وحوالي بغداد فكانت طرق التجارة العالمية في يده والحالة هذه ، وكانت تبريز تعد مليوناً من السكان وكانت بلداً تجارياً عظيما ، فكانت واردات تيمور من هذه المدينة وحدها تفوق واردات ملك فرانسا من مملكته كلها في ذلك العهد .

والواقع ان حكم تيمور كان كثير النفع للتجارة واصحاب القوافل ، لان هؤلاء كانوا يدفعون ضريبة واحدة في الطرق والبلاد التي يقصدونها مدة خمسة اشهر ، وكذلك كان يعنى تيمور بالزارع والفلاحين ، لانه كان يعلم ان هؤلاء مصدر الثروة في مملكته ، فما كان يسمح لاحد ان يسلبهم ، لان الواردات التي

ترد اليه منهم كانت عظيمة ، وهذه الواردات كانت ضرورية لحاجات جنده ، وجنده كان اساس الامبراطورية و كيانها فان ضعف فان الامبراطورية التي انشأها تيمور بقوة هذا الجند واخلاصه تنهار وتضمحل .

و كان تيمور قليلا ما يقضي وقته في سمرقند ، لان من يحكم مثل هذه البلاد الواسعة عليه ان يكون دائماً على حذر ، وعليه ان يكون على ظهر جواده في غالب الاحيان ، واذا ما كان تيمور مع جنده كان يحمل معه خيمتين ، واحدة تتقدمه واخرى تظل معه فكان كلما وصل الى محطة وجد خيمة جاهزة فينزل فيها ويقف حرسه الخاص المؤلف من اثني عشر الف جندي حولها .

و كان هذا الحرس كثير الشجاعة عظيم الجرأة وتيمور يقدر رجاله حق قدرهم ولا يبخل عليهم بالعطاء والثناء كلما رأى الى ذلك سبيلا ، و كان تيمور يقدر الشجاعة وينعم على صاحبها و كثيراً ما كان يعطي امرأه بلداً برمتها تقديراً لشجاعة اظهروها في معركة خرج منها ظافراً منصوراً .

وفي هذه الفترة حدثت بعض الفتن في بلاد فارس ، فان الامراء الفرس الذين تركهم تيمور يحكمون البلاد قد رجعوا الى خصوماتهم السالفة ، و كان من اثر ذلك ان تمكن الشاه منصور من التغلب عليهم ، وقبض على ابن اخيه (زين العابدين) فاعماه كما هي

العادة المتبعة عندهم .

ولما وصل تيمور الى بلاد فارس تحصن الشاه منصور في القصر الابيض وكان حصناً قوياً يقع في اعلى الجبل ، وفيه ماء وخيرات كثيرة يستطيع معها اصحابه الصبر على الحصار سنوات عديدة . وكان الصعود الى الجبل من الصعوبة بمكان عظيم لان الطريق الوحيد اليه كان ضيق المسلك كثير الوعورة يستطيع عدد من الجند اذا وقفوا فيه ان يردوا فرقة برمتها ، وكان من المستحيل استعمال ادوات الحصار لاقتحام الحصن لان علوه كان يمنع هذه الادوات من الوصول اليه .

فلما اخذ تيمور في محاصرته لم يوفق في اليوم الاول ، وهلك من رجاله بواسطة الحراب والحجارة التي كانت تتساقط عليهم من الجنود في الحصن عدد كثير .

ولكن رجال تيمور تمكنوا من تسلق الجبال الوعرة برغم السهام ، وكذلك سقط هذا الحصن القوي امام التضحية والجرأة وما كان ليسقط امام الجيش القوي . وبسقوطه تمكن تيمور من اقتحام فارس كلها ، كما انه هزم الشاه منصور في معركة وقبض عليه وقتله مع كل الامراء الفارسيين الذين ايدوه .

***

وباقتراب تيمور من حدود البلاد العربية احس امراؤها وقوادها

بالخطر المحدق بهم ، فاخذوا يكاتبون بعضهم بعضاً لتوحيد الصفوف، وصد العدو الذي لا يرحم ، فسارت لذلك الكتب بين سلطان مصر الذي كان يحكم مصر ودمشق وحلب والقدس وبين حاكم بغداد ، ولم تكن بغداد في هذا العهد مقر الخلافة بل كانت دولة مستقلة تربطها مع البلاد العربية المجاورة اواصر رحم ومصلحة.

ورأى قرايوسف التركماني الذي اخرجه تيمور من بلاده فرصة مناسبة للايقاع بعدوه الطاغية فانضم الى سلطاني مصر وصاحب بغداد يؤيدهما ويبالغ في اغرائهما على محاربة تيمور.

وكان صاحب بغداد احمد ابن اويس شديداً ظالماً ، ولكنه كان يعرف قوة تيمور فلما عرف بقدومه ارسل المفتي اليه ومعه الهدايا والتحف ، ويقول الرواة ان تيمور اجاب المفتي بانه سيرسل الى صاحب بغداد هدية خاصة من عنده ، وهي رأس الشاه منصور والظاهر ان تيمورلنك كان يعرف باتفاق صاحب بغداد مع قرايوسف زعيم التركمان ، لان جواسيسه كانت في كل مكان فكانوا ينهون اليه بالحوادث الكائنة في مواطنهم والبلاد التي يقيمون فيها على جليتها ، ويكاتبونه بجميع ما يروم ، فلا يتوجه الى جهة الا وهو على بصيرة من امرها ، وبلغ من دهائه انه كان اذا اراد قصد جهة ، يكاتب جواسيس تلك الجهة بغايته فيهيئون له الامور ، وكثيراً ما كان ينزل على البلد لا تعرف اقادم هو عليها ام قاصد

الى سواها فيأخذها على حين غرة ·

واخذ صاحب بغداد في هـذه الفترة يأخذ اهبته ، وارسل العيون الى خارج بغداد لتنقل له اخبار تيمور وجنده ، وكانت عيون تيمور في الوقت نفسه تبعث له باعمال صاحب بغداد وحركاته ، فاسرع تيمور الى بغداد وكان صاحبها قد نقل كل امواله وجواهره منها ، فلما اصبح التتار على مقربة من عاصمتـه تركها وفر هارباً ، ولحقه جماعة من التتار فلم يقعوا عليه وانتهبوا بعض اثاثه وامواله ·

واستولى تيمور على بغداد ، وامر ان يقرأ اسمـه في الخطبة في المساجد ، واما صاحب بغداد فقد هرب حتى وصل الى مصر فنزل عند السلطان فيها ·

وبعد مدة ارسل تيمور وفداً من قبله الى سلطان مصر يقول له «بان تيمور قد ملك العراق وان عليه قبول الامر الواقع وان تيمور لا يريد الا ان يظل السلام مستتباً بين الدولتين»

ولكن سلطان مصر ضرب اعناق الوفد ، وجمع جيشه ونزل الى بغداد فافتتحها بمساعدة العرب والمماليك والتركمان ، وبمساعدة الاتراك ايضاً وارجع صاحبها الى عرشه على ان يكون بعـد اليوم تابعاً للسلطان في مصر ·

والواقع ان تقدم تيمور الى البلاد العربية والتركية قـد اقام في وجهه اعداء اشداء ، خصوصاً الاتراك ، الذين كانوا يهددون

اوربا في ذلك الوقت وقد استولوا على كل الاناضول ، وانشأوا الدولة العثمانية فيه .

وما كاد صاحب بغداد يجلس على عرشه الجديد حتى ارسل عيونه الى سمرقند تنقل له اخبار تيمور وحركاته ، فجاءه هؤلاء بعد مدة يتحدثون عن تيمور وافعاله وعظمته ، وكيف ان رجاله وصناعه يبنون قصراً كبيراً في اقل من شهر واحد .

ولما سألهم عن مكانه اجابوه انه ذهب الى الهند لمحاربة امرائها ولكن حاكم بغداد لم يكن مطمئناً كل الاطمئنان الى دوام ملكه فكان كثير الاضطراب دائم الوسواس حتى انه اقام خدماً من خاصته يثق بهم ومعهم بعض الخيول لتأمين هربه عند اللزوم



١٧

الحياة فى العاصمة

لقد مضى على سمرقند سنوات عشر وهي تنعم بسلام اطمئنت معه الى ترف الحياة ، وملاذ الحضارة التي كان تحمل اليها من جميع اطراف العالم .

لقد تسلمها تيمور بلدة صغيرة ، تقوم منازلها من الخشب والطين اليابس ، فخلقها في مدة قصيرة خلقاً جديداً ما كان بميسور احد ان يتعرف عليها لو رجع اليها بعد هذا التاريخ ، حتى لقد اصبحت في سنوات قليلة درة البلاد الاسيوية واجمل مدن الشرق .

وزينها بكل ما في البلاد التي اجتاحها من جمال وفن وحضارة واسكن فيها الاسرى من ابناء الشعوب القريبة والبعيدة ، كما حشر فيها العلماء والكتاب والفلاسفة ، وشيد فيها الدور العمومية والجامع والمعابد والمكاتب ، ومراكز الاستعلامات للتجار والصناع وزاد على ذاك فانشأ فيها مرصداً فلكياً لرصد النجوم ومراقبة الكواكب .

وكان تيمور يجد بعاصمته وجداً شديداً فلم تلهه عنها فتوحاته

ولا انتصاراته ولا امجاده ، فكان دائماً وابداً يعنى بها ويفكر فيها فيجلب اليها الرخام الابيض من تبريز والحجر الملون من (هارات) حتى اصبحت فتنة المدن واجمل العواصم .

وكان تيمور في هذا الفصل الذي نتحدث فيه عن عاصمته يغزو الهند ويقتحم مدنها ، يريد ان ينقل كنوزها وثروتها الى بلاده وعاصمته ، وكان يتصل بعاصمته ورجاله ، بواسطة البرد التي كانت تسير ذهاباً واياباً بينه وبين العاصمة والتي كانت تقطع المفاوز والسبل القائمة بين الهند وسمرقند في شيء من اليسر

وكان لا بد لحملة البرد ان يمروا بسهل واسع اقيمت فيه الاكواخ والخيام التي كان يسكنها الاسرى والعبيد من الذين احتملهم تيمور في فتوحاته من بلادهم الى ارضه ، وكان بينهم جماعات كثيرة مشت الى سمرقند ثقة منها انها واجدة فيها الغنى الوافر والعيش الوسيع .

اما سكان هذه الخيام فكان خليطاً من امم العالم فيهم اليهودي والمسيحي والمسلم ، وكلهم قد فتنوا بسمرقند وما فيها من مراتع اللهو والعبث .

وقامت في اطراف هذا السهل ايضاً الخيول والجمال الخاصة باصحاب القوافل من التجار وغيرهم يقوم عليها حراس مسلحون

وعلى مقربة من المدينة قامت قصور النبلاء والعظماء ، ثم ضواحي المدينة وقد كتب على احدى جامعاتها بحروف كبيرة « الله اكبر لا اله الا الله »

وكانت تقوم في الطريق الموصل الى المدينة اشجار باسقة ، ترد عن المسافرين حر الصيف ، وحواليها الانهار تسقي ماحولها من البساتين ، وفوقها الجسر ، وبالقرب منها قصر لايزال العمال يعملون فيه ·

ثم ترى الرسل بعد ذلك جداراً عظيما طوله مئة متر وهو احد جدران اربعة من نوعه ، ولكل جدار مدخل واحد ، وفي الداخل جماعة من الفرس يشتغلون ويعملون في تنظيم هذا البناء العظيم الذي كان تيمور قد امر بانشائه لتجري في عرصاته وداخله الحفلات التي يريد اقامتها الحين بعد الآخر ·

وبين هذه البساتين الجميلة تقوم سمرقند العاصمة يحيط بها سور عظيم تبلغ دائرته خمسة اميال ، فيدخل الرسول من احد الابواب التي نقشت بالرسوم الكثيرة ، فيعرفه السكان من شكله وهيأته بانه رسول تيمور من الهند · ويجري خلفه الاطفال فلا يزال ينتقل من شارع الى آخر حتى يصل الى الحاكم ونائب تيمور حيث ينتظره الكتاب الذين يقع عليهم امر نشر اخبار تيمور وفتوحاته بين الشعب وهناك جماعة من التتار تحمي القلعة الواقعة في داخل العاصمة

والتي يسكنها نواب تيمور وحرمه ، ومنازل الحرم جميلة فتانة بنيت على الذوق الصيني ولها بساتين خاصة ، فيها انواع الاشجار والزهور ، واما الاثاث والفرش فحدث عنها ولا حرج ذلك انها كانت انفس ما حمله تيمور معه في فتوحاته من كل صقع وبلد .

وكانت هناك حفلة خاصة في القلعة ذلك المساء تصدرتها (ساري خانم) زوجة تيمور وحولها الامراء والنواب وبعض الضيوف من العرب وغيرهم .

فاذا اخذت اميرة القصر مكانها تقدم نحوها الخدم باقداح الاشربة وقدوضعوا المناديل على ايديهم حتى لا تتصل بالاقداح نفسها ويركع الخدم امام الاميرة فتأخذ هذه ما تريده ، وعندئذ يتقدم سواهم بالاقداح الى الامراء والضيوف فيشرب هؤلاء كل ما في القدح احتراماً للاميرة ربة القصر .

واما قصر تيمور نفسه فيقع وراء القلعة حيث توجد فيه الذخائر والجواهر والسلاح العجيب النادر ، كما يوجد فيه دائرة خاصة للمهندسين الذين يعملون بمشورته ، ويدرسون ما يطلبه منهم من الامور . .

وهناك المساجد التي للصلاة والدراسة حيث يقوم فيها العلماء بتدريس اللاهوت ، او بحث الفلسفة كما كان يجري عادة ، ويشتد الجدل فيما بينهم فيتخاصمون ويتناقشون بشدة وكل يدافع عن رأيه

ويدعي انه الافضل والحق .

لقد نشأت سمرقند وفاقاً لرغبة تيمور وذوقه ، فلم ينقل اليها ما كان يراه في فتوحاته من الوان العمارة والصناعة ، بل كان يقيم شيئاً غير ذلك كله ، هو اقرب ما يكون الى ذوقه وهواه كما قدمنا .

وكان الحديث في هذه الايام يدور عادة حول حرب الهند ، وكيف انها حرب خطرة لما في الهند من ادغال ، وفيلة وحر شديد ولانها بعيدة جداً واهلها كثيرون .

وكان التتار قد تعودوا على ان ينتصر تيمور مليكهم على اعدائه ابداً ، فكانوا ينتظرون رجوعه بفارغ الصبر لان الاحوال في اسيا الصغرى والعراق لم تكن على ما يرام ، فقد ثار سكان القوقاس ، ورجع صاحب بغداد بمساعدة مماليك مصر الى عرشه ، وانهزم رجال تيمور امامه ، ولذلك كانت الضرورة تقضي برجوع تيمور الى عاصمته لينظر في هذه الشؤون الجديدة التى حدثت في غيابه ، وقد يكون لها تأثير عظيم على مصاير الملك في عهده .

وفي اليوم التالي جاء رسول من الهند يأمر نائبه سيف الدين بقتل (شادي ملك) وهي فتاة فارسية ، وقع خليل حفيد تيمور في هواها ، وطلب من والده التزوج بها فابى عليه تيمور ذلك ، فراح خليل يمعن في حبه ووجده ، ثم شاع بعد ذلك انه دخل عليها خلسة ووصل الخبر الى تيمور بذلك فامر باعدام الفتاة ، وكان امره مقضياً .

ومضت ايام اخرى واذا الرسل تسرع نحو سمرقند تبشر الناس بانتصارات تيمور على اعدائه الهنود، فاهتز الناس فرحاً وراحوا يصيحون ويهزجون ويبكون ، اما اخبار الانتصار فكانت عظيمة حقاً ، لقد اخبر الرسل ان تيمور غلب ملك دلهي ، وانه قتل من رجاله مئة الف نسمة وانه دخل دلهي فاتحاً ونهب ما فيها من ذخائر واموال .

***

ومدينة دلهي كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهي الان اربع مدن متجاورات متصلات ، والسور المحيط بها لا يوجد له نظير ، عرض حائطه احد عشر ذراعاً وفيه بيوت يسكنها حفاظ الابواب من الجند ، وفيها مخازن للطعام ، ومخازن للعدد ، ومخازن للمجانيق والرعادات ، ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من اول المدينة الى اخرها ، وفيها نوافذ مفتحة الى جهة المدينة، يدخل منها النور ، واسفل السور مبني بالحجارة واعلاه بالآجر ، وابراجه كثيرة متقاربة ، ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً ، وفي دلهي جامع كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه من الحجارة البيضاء المنحوتة ابدع نحت ، ملصقة بالرصاص اتقن الصاق ، ولا خشبة به اصلا ، وفيه ثلاث عشرة قبة من الحجارة ، ومنبره ايضاً من الحجر ، وله اربعة من الصحون ، وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لايدري

احد نوع المعدن القائم منه ، وطوله ثلاثون ذراعاً ، ودائرته عظيمة وعند الباب الشرقي من ابواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس مطروحان بالارض وقد الصقا بالحجارة وبطأ عليهما كل داخل الى المسجد او خارج منه ، وقد كان هذا المسجد بيتاً للاصنام فلما افتتح المسلمون دلهي جعلوه مسجداً ، وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الاسلام في ذلك العهد وهي مبنية بالحجارة الحمر خلافاً لحجارة سائر المسجد التي هي من الحجر الابيض والصومعة كثيرة النقوش سامية الارتفاع حتى ليظهر الناس في صحن المسجد للواقف في اعلاها صبياناً صغاراً .

***

وفي الربيع وصل تيمور على رأس جيشه الى عاصمته ، فخرج اهل العاصمة كلهم لاستقباله ، وفرشت البسط في طريقه ، وقامت المظاهرات فرحاً واستبشاراً .

ونزل الامراء والاميرات جميعهم الى خارج المدينة لاستقبال تيمور بانفسهم ولمشاركة الشعب في فرحه وهتافه ، وكم كان عجب الناس عظيماً لما رأوا الفيلة وكان عددها يقرب من مائتي فيل تسير بين الجند ، وهي تحمل التحف والجواهر والاموال التي حملها تيمور معه من حربه الهندية

وما كاد تيمور يصل الى قصره حتى ذهب الى الحمام ، وكان

ذلك اول اعماله ٠

وكذلك تمكن تيمور من تخضيد الهند وتدويخها فتم له بفتحها الغلبة على كل آسيا في عهده ، ولم يبق امامه الا البلاد العربية التي سيأتي دورها حتماً في زمن غير بعيد ٠



١٨

غزو البلاد السورية

ما كاد تيمور يعود من فتوحاته في الهند حتى راح يأمر بانشاء الجامع الكبير الذي اطلق عليه بعد ذلك اسم جامع الملك .

كان عدد المكلفين بقطع الحجارة من الجبال القريبة يبلغ خمسماية نسمة ، واخذت الفيلة التي جلبها معه تيمور من الهند تنقل هذه الحجارة من الجبال الى حيث يقوم الجامع ، وما كاد ينتهي تيمور من اقامة الجدران حتى امر العمال الهنود الذين جلبهم معه بالعناية بتزيين داخل المسجد ، وبذلك كان تيمور ينصرف الى شؤون العمارة بالسرعة التي ينصرف فيها الى محاربة خصومه واعدائه ومع ان مائتي الف نسمة هلكت في فتوحاته الهندية فان تيمور لم يكن يفكر بذلك ابداً بل لعله قد تناسى ذلك بعد وقوعه بدقائق

ولقد كان المسجد فخما عظيما وسيعاً يحتوي على ما يقرب من اربعمائة من الاعمدة والركائز ، وما هي الا ثلاثة اشهر حتى كان البناء قائما وحتى كانت الصلاة تقام فيه والمؤمنون يقصدونه من كل اطراف سمرقند .

وكان تيمور ما يبرح اميراً لم يلقب نفسه بالقاب الملك وغيرها بل كان يكتفي بلقبه الاول لا يبدله بسواه ، واما ابناؤه وحفدته فكان بعضهم يلقب بالسلطان وغيره بالامير ، وبعضهم بالميرزا وفاقاً لانسابهم ، وكان تيمور قد قسم بينهم كثيراً من الممالك والدول ، فكان محمد سلطان يحكم الجاتية او المغول ، ويقوم مقام الخان عندهم ، وبير محمد يحكم الهند ، وشاه روك يسيطر على خراسان ، واما مسألة الخليفة بعده فان احداً لم يكن يجرأ على البحث فيها امام تيمور ، وان كانت (ساري خانم) تريد العرش لابنها شاهروك (وكان زاده) تريده لابنها الصغير خليل .

***

واما تيمور فكان منصرفاً الى العناية بالفيلة التي جلبها معه ، والى الاهتمام بتحسين عاصمته ، وقد رأى يوماً ان احد الشوارع فيها ضيق يكثر فيه الازدحام فامر بهدم البيوت القائمة حوله وتوسيعه ، وكان امره مقضياً في اسرع وقت ، ولكن اصحاب الاملاك حملوا ظلامتهم الى بعض القضاة يطلبون تعويضاً عن املاكهم المهدومة ، فراح هؤلاء يتحدثون الى تيمور بذلك فقال بحدة :

— الست انا المالك لسمرقند ؟ !

فاجابه القضاة وقد اضطربت اعصابهم : — نعم ...

ولكن تيمور أعاد وامر للمتضررين بالتعويض اللازم .

***

وكان تيمور في هذا الوقت في الرابعة والستين من عمره ، ومع ان صحته جيدة ، ونشاطه لا يزال قوياً ظاهراً ، الا ان المرض كان ينتابه بين آونة واخرى ، ولكن ذلك لم يكن له كبير امر لديه ، فقد كان لا يزال يبث عيونه وجواسيسه في البلاد العربية ومابين النهرين تنقل له اخبارها واعمال رجالها — خصوصاً وان بغداد قد خرجت من حكمه ، ولكنه لم يكن يحرك ساكناً ، بل كان ينصرف الى نفسه لا يجلس مع رجاله الا قليلا .

ومع ان تيمور كان ينشيء المساجد ويقيم الجوامع للعبادة والصلاة الا انه في الواقع لم يكن كثير التدين والايمان ، ولا كان يهتم لاقوال الفقهاء والعلماء والصالحين .

ولقد كانت الخلافة في هذا العهد تقوم في مصر ، وكانت مراكز الاسلام بغداد ودمشق وحلب وغيرها ، وكان حماة الاسلام الاتراك العثمانيون ، واما تيمور ورجاله فقد كانوا في نظر هؤلاء المسلمين قوماً كافرين مارقين .

ولكن محاربة هؤلاء المسلمين معناه انقسام الاسلام ووقوف آلاف من الجنود المؤمنين يحارب بعضهم بعضاً ، وهو ما كان يحمل رجال الدين في بلاط تيمور على الاشارة الى هذا الخطر ،

وكانوا يرجون تيمور ان لا يحرك ساكناً وان يترك هؤلاء الامراء المسلمين وشأنهم .

ولكن تيمور لم يكن رجلا يرضى بان يطرد رجاله وتؤخذ منه مدينة اقتحمها بسيفه ، وكان يعتقد انه قد جرح في عزته بطرد حاكمه من بغداد ، وان هذا التحدي لملكه وشخصه يجب ان يكون له جواب .

لقد عاد تيمور من حرب الهند في مايس سنة ١٣٩٩ ، وفي ايلول من السنة نفسها ركب على رأس جنده ومضى يزحف على العالم العربي .

***

لقد كان امام تيمور اعداء كثيرون ، فهناك الترك والتركمان والعرب وغيرهم ، وللوصول اليهم كان على تيمور ان يقطع ارضاً ليس فيها ماء ولا شجر ، ولا كلاء ، ومع ذلك فان موقفه في زحفه هذا يشبه موقف نابليون سنة ١٨١٣ .

ثم كان على تيمور ان يفكر بفصول السنة نفسها ، وما فيها من برد وقيظ ، فلا يحمل جنده فوق طاقتهم ، ولا يلقيهم بيده الى التهلكة ، ولكن ذلك كله لم يكن يهم هذا الملك الهائل ، لقد كان امامه اعداء كثيرون كما قدمنا ، وقد انضم الى اعدائه سكان جورجيا الذين يسكنون جبال القوقاس ، كما ان قرايوسف زعيم

التركمان كان ينتقل من مكان الى آخر يبذر بذور الثورة ضده ، ويثير السكان عليه وعلى جنده ، ولما راح تيمور يفكر في الزحف على العالم العربي رأى انه اذا اراد الذهاب رأساً الى بغداد فقد يسقط عليه الاتراك من الشمال ، واذا ما اراد مهاجمة الاتراك اولا ، فان الجيش المصري والعرب يسقطون عليه من خلفه ، وكانت هناك مسألة الماء ، فان تيمور كان بحاجة الى الكثير منها لارواء ظمأ جنده وخيله وفيلته ، ولذلك كان تيمور يتحدث دائماً الى بعض التجار الذين يعرفون البلاد والذين جلبهم معه في زحفه ، يتعرف بواسطتهم على اماكن الكلاء والماء .

ولما وصل تيمور بجنده الى اذربيجان رأى قواده ان يتخذوا من بلدة تبريز محطة لهم ومعسكراً ، فتوقف الزحف واخذ تيمور يكتب الكتب ومنها كتاب الى بيزيد ملك الاتراك يطلب فيه منه بلطف ان لا يساعد قرا يوسف وحاكم بغداد ، وان يقف من هذه الحرب موقف الحياد .

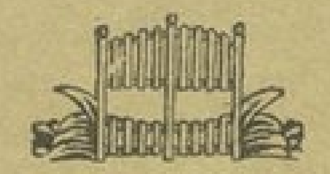
وكان تيمور يقدر قوة الترك الحديدية ولا يريد الخصام معهم فيما لو تركوه واعدائه يفعل بهم مايشاء .

ولكن اعداء تيمور كانوا تحت الرعاية التركية في ذلك الحين ولم يكن بيسور السلطان بيزيد ان يتركهم وشأنهم ولذلك كتب الى تيمور كتاباً شديداً ، يقول فيه « انه ليس من عادة

الاتراك ان يتركوا رجلا طلب مساعدتهم .

فاجابه تيمور بمثله شدة ، وهـدده بالحرب ، فاجابه السلطان بانه كان يفكر كثيراً بالاجتماع معه في ساحة القتال ، وسيرى تيمور بعدها لمن تكون الغلبة .

ودارت بين الملكين سلسلة مراسلات على هذا النحو وتيمور يأخذ احتياطاته ويعزز جنده ، ويوطد مركزه ولما استقام له ذلك كله ، ارسل بعض طلائعه لمطاردة القبائل القوقاسية التي كان قد تجمع معها بعض العرب فهزمت طلائعه هـذه القبائل ، ثم راح يتقدم نحو سيواس فاستولى عليها ، وقتل الارمن من سكانها وابقى على المسلمين ، وبدلا من التقدم في الاراضي التركية امر جيشه بالمسير نحو البلاد العربية ، وراح بعض قواده يحاولون اقناعه بخطأ هذه الخطة ، ولكنه اصر على رأيه وسار الجيش الى الحدود السورية وكان ذلك في شهر شباط ١٤٠١



٢٠

احراق حلب ودمشق !!

تقدمت جنود تيمور الى عينتاب فافتتحها وسقطت بعدها الباب ، ولما وصل الجيش الى ضواحي حلب كتب تيمور الى نائبها يقول :

« انا وصلنا في العام الماضي الى البلاد الحلبية لاخذ القصاص ممن قتل رسلنا ، ثم بلغنا موته يعني السلطان الظاهر ، وبلغنا امر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا اليهم واظفرنا الله بهم ، ثم رجعنا الى الكرج فاظفرنا الله بهم – ونظن ان الكرج هم سكان القوقاس – ثم بلغنا قلة ادب هذا الصبي ابن عثمان – السلطان بيزيد – فاردنا عرك اذنه فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاده كما بلغكم ، ونحن نرسل الكتب الى السلطان بمصر فلا يعود جوابها ، فنعلمهم ان يرسلوا قريبنا اطلمش الذي اسروه ، فان لم يفعلوا فدماء المسلمين في اعناقهم والسلام »

خنق نائب حلب لهذا الكتاب وامر بضرب اعناق رسل تيمور ، واخذ يحصن سور المدينة ويضع عليها المدافع

والمكاحل والمقاتلين .

وقد ارتكب نائب حلب خطأ فاحشاً بقتل الرسل ، والرسل لا تقتل عادة ، ولعله كان يعتقد انه وجماعته يستطيع مقاومة تيمور وجنده ، وفي ذلك دليل على جهل امراء البلاد العربية بقوة تيمور وعدد جنده ، وعجزهم عن كشف اخبار جيوشه ، وتقدير مبلغ قوته ، وقدذكر بعض المؤرخين ان الجيش الذي سار به تيمور الى البلاد العربية يبلغ بضع مئات آلاف ...

ولما بلغ تيمور ما فعل الحلبيون برسله ، زحف الى قرية حيلان واحاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع فخرج جند حلب ومعهم النواب والقواد حتى النساء والصبيان ، وهاجموا جيش تيمور فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وقد دهمتهم جنود تيمور كأمواج البحر الزاخرة ، فلم تثبت امامهم الجنود العربية الا قليلا ، وولوا على اعقابهم مدبرين الى المدينة ، وقد داست حوافر الخيل اجساد العامة ، وكان احتمى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والاطفال ، فدخل التتار اليهم واسروهم وقرنوهم بالحبال ، واسرفوا في قتل النساء والرجال ، وصارت الابكار تفتض في المساجد وآباؤهن يشاهدونهن ، ولم يراعوا حرمة الجوامع واصبحت كالمجزرة من القتلى ، واستمر الحال كذلك مدة اربعة ايام .

وفي كنوز الذهب : ان جيش تيمور لما دخل الى حلب نهب

واحرق وسبى وقتل ، وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها ويفعلون . فلجأ النساء عند ذلك الى جامعها ظناً منهن ان هذا يقيهن من ايدي الكفرة ، وصارت المرأة تطلي وجهها بطين او بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها ، فيأتي الجندي من التتار اليها ويغسل وجهها ويجامعها في الجامع .

وقال بعض من حضر الوقائع بأن تيمور عرض الاسرى من بلاد الشام وضواحيها فكانوا ثلاثمائة الف اسير وستين الف اسير .

رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب فنزل من القلعة هو وبقية النواب ، واخذوا في رقابهم المناديل وتوجهوا نحو تيمورلنك يطلبون منه الامان ، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم اقبية مخمل احمر والبسهم تيجاناً مذهبة ، وقال لهم : انتم صرتم نوابي ، ثم ارسل معهم جماعة من امرائه يتسلمون القلعة ، وكان فيها من الاموال والذخائر والحلي والسلاح ما تعجب تيمور من كثرته ، حتى اخبر بعض اخصائه انه قال :

— ما كنت احسب ان في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر ، ثم استنزل من بها وغدر بهم بعد ان آمنهم ، واخذ جميع ما كان فيها واحرق المدينة .

واستمر مقيما في حلب نحو شهر ، وجنده ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الاشجار التي بها ويهدمون البيوت ، وقد اسرفوا

في القتل ونهب الاموال ، وصار الانسان لا يطا الا على جثة انسان لكثرة القتلى ، حتى قيل انه من بنى رؤوس القتلى عشرة مآذن .

ويقدر عدد من قتل في هذه الواقعة من اهل حلب من صغار و كبار ونساء ورجال بنحو من عشرين الف انسان ، عدا من هلك من الناس تحت ارجل الخيول عند اقتحام ابواب المدينة وقت الهزيمة وقد هلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك .

***

ثم مشى تيمور بجنده الى حماة وسلمية ، وارسل جماعة من عسكره الى جهات طرابلس فتاهوا عن الطريق ، ودخلوا في واديين جبليين فوثب عليهم جماعة من العربان فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين .

وفعل تيمور باهل حماة ما فعله باهل حلب من القتل والنهب واحرق معظمها ، ولم تطل يده الى حمص فوهبها كما قال ، لخالد ابن الوليد .

قال ابن حجر : وذكر بعض من يوثق به انه قرأ في الحـ . القبلي بالجامع الاموي النوري بحماة منقوشاً على رخامة بالفارسي ما نصه : ان الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الى بغداد ، فجاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتتم بيننا المودة فقتلوا

رسلنا ، وظفرت طائفة من التركمان بجماعة من رجالنا فسجنوهم ، فتوجهنا لاستخلاص قرينا من ايدي مخالفينا ، واتفق في ذلك نزولنا بحماة في العشرين من شهر ربيع الاول».

***

وجاء تيمور الى دمشق فنزل عند سفح جبل الشيخ ، اي في غربي دمشق في قطنا واقليم البلان ، وقوي عزمه على فتحها لما عرف بان الملك فر منها الى مصر ، فارسل الى نائب دمشق رسولا من قبله فقتله قبل ان يسمع كلامه ، جرى في ذلك على ماجرى عليه نائب حلب فزاد تيمور حنقاً وغضباً.

ومن الغريب ان نائبي دمشق وحلب لم يقدرا قوة تيمور حق قدرها وظنا باعتصامهما في قلعتي المدينة ، وبالقليل مما عندهما من الجند واحداث البلدين يستطيعان التغلب على جيوش تيمور الجرارة.

غلطة ارتكبها نائب دمشق ، قضت على اعظم مدينة في الارض واجمل العواصم في العالم في عهدها .

ذكر ابن اياس : انه كان بين اهل ودمشق وبين جنود تيمور في اول يوم واقعة عظيمة قتل فيها من جند تيمور الفا انسان ، فارسل تيمور يطلب من اتيان دمشق رجلا من عقلائهم ، يمشي بينه وبين اهل دمشق في الصلح ، فلما اتى رسول تيمور بهذه الرسالة تشاور اهل دمشق في من يرسلونه الى تيمور فوقع اختيارهم على

القاضي تقي الدين بن مفلح بن الحنبلي ، لانه كان انسانا طلق اللسان يعرف التركية والعربية ، فارخوه من اعلا السور ومعه خمسة انفس من اعيان دمشق ، فغاب عند تيمور ساعة ثم رجع من عنده ، فاخبر بان تيمور تلطف معه في القول ، وقال له :

ــ هذه بلد فيها الانبياء وقد اعتقها لهم ، وشرح من محاسن تيمور شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل اهل الشام عن قتاله ويرغبهم في طاعته ، فصار اهل البلد فرقتين ، فرقة ترى ما رآه هذا القاضي وفرقة ترى محاربته ، وكان اكثر اهل البلد يرون مخالفة القاضي ومحاربة تيمور ، ثم غلب رأي القاضي وجماعته ، فقصد ان يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب القلعة وقال لهم :

ــ ان فعلتم احرقت البلدة جميعها

ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً .

ثم قبض تيمور على القاضي وجماعته واودعهم في الحديد ..

وذكر غيره : انه لما قدم الخبر على اهل دمشق بأخذ حلب نودي في الناس بالرحيل من ظاهرها الى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فاخذوا في ذلك ، ثم قدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف اهلها ، وهموا بالجلاء فمنعوا من ذلك ، ونودي من سافر نهب ، فعاد اليها من كان خرج منها .

وحصنت دمشق ، ونصبت المناجيق على قلعة دمشق ونصبت المكاحل على اسوار المدينة استعداداً للقتال ، ثم نزل تيمور بجيشه في قطنا فملأت جنوده الارض كثرة ، وصار بين جند دمشق وجند تيمور موقعة لم يتمكن بها تيمور من اقتحام المدينـة ، ثم هرب السلطان الى مصر لما بلغه ان هناك مؤامرة ضده .

وكان اجتمع في دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين واهل القرى ممن خرج جافلا من تيمور ، ما عـدا الجند الذي كان في دمشق ، ولما اصبحوا وقد فقدوا سلطانهم وامرائهم ، اغلقوا ابواب دمشق ، وركبوا اسوار البلد ونادوا بالجهاد ، فتهيأ اهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من اعلى الاسوار اشد قتال ، وردوا التتار عن السور والخندق ، واسروا منهم جماعة حاولوا اقتحام باب دمشق ، واخذوا من خيولهم عـدة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الالف ، وادخلوا رؤوسهم الى المدينة ، ولما اعيى تيمور امرهم جعل يخادعهم فارسل يريد الصلح

وطلب تيمور اولا تسعة اصناف من المأكول والمشروب والملبوس وغيره ، وهذه كانت عادتـه في كل بلد يفتحها صلحاً ، فاجابه الدمشقيون الى ما طلب باقناع القاضي كما قدمنا .

وتقرر ان يجبي تيمور من دمشق الف الف دينار ، وفرض المبلغ على الناس فقاموا به من غير مشقة عظيمة ، ولكن تيموراً عاد

بقول انه يطلب عشرة اضعاف هذا المبلغ ، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم . ثم فرض عليهم تيمور ان يسلموه اموال المصريين الذين انهزموا واسلحتهم ففعلوا ذلك ، ثم طلب جميع ما في دمشق من السلاح جليله وحقيره فاخرجوه كله ، فلما فرغ من ذلك قبض على القاضي وجماعته والزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ، ففرقه على امرائه وقسم البلد بينهم فساروا اليها بجنودهم وحواشيهم واخذ كل منهم مقامه في محلة من المحلات والزموا اهلها باخراج كل ما عندهم ودام هذا البلاء عدة ايام ، ثم امر تيمور رجاله بالدخول وسيوفهم مشهورة ، فنهبوا ما قدروا عليه وسبوا نساء دمشق باجمعهن وساقوا الاولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ، ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق البلد حتى صار لهيب النار يناطح السحاب .

وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد ان اقام ثمانين يوماً ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني امية من الحريق ، وزالت ابوابه ، وتفطر رخامه ولم يبق غير جدره قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت اطلالا بالية ورسوماً خالية ولم يبق فيها غير الاطفال .

وفوق ذلك كله ومع مامنيت به دمشق من قتل سكانها وسبي نسائها واولادها ، واحراق مصانعها وبيوتها ، واستخراج اموالها وطرائفها ، اصابتها من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك ، اصابت منها الصميم فلم تبق عليها ولم تذر .

قال ابن عربشاه في تفصيل هذا الهول : وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق اخذ هو يتطلب الافاضل واصحاب الحرف والصنائع وارباب الفضل ، واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة ايام وارتحل وجيشه وقد اخذ من نفائس الاموال فوق الطاقة والامكان ، وتحملوا عدا ذلك ماعجزت عنه قوة استطاعتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ، ويلقونه شيئاً فشيئاً في اوعار المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، واصبحت القفار والبراري والجبال والصحاري من الامتعة والاقمشة كانها سوق او معرض وكأن الارض فتحت خزائنها واظهرت من المعادن وغيرها كامنها ، واخذ تيمور من دمشق ارباب الفضل واهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون او بارع من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والاقباعية والبياطرة والنقاشين والقواسين وبالجملة اهل كل فن وصناعة ، ولم يترك الفقهاء والعلماء والافاضل وحفاظ القرآن والعبيد والنساء والصبيان بما لا يسعه الضبط والوصف .

وجاء في الضوء اللامع ان تيمور كان يسلك الجد مع القريب

والبعيد ولا يحب المزاح ، ويلعب الشطرنج وله فيه يد طولى ومهارة فائقة ، حتى انه زاد فيه جملا وبغلا بحيث لم يكن يلاعبه فيه الا افراد ..

وكان ذا رأي صائب ، ومكائد في الحروب عجيبة وفراسة قل ان تخطيء ، عارفاً بالتواريخ لادمانه على سماعها لا يخلو مجلسه من قراءة شيء منها سفراً وحضراً ، مغرماً بمن له معرفة بصناعة ما اذا كان حاذقاً فيها ، أمياً لا يحسن الكتابة ، حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغلية الخاصة ، ويعتمد قواعد جنكيز خان ويجعلها اصلا ، ولذلك افتى جمع جم بكفره مع ان شعائر الاسلام في بلاده ظاهرة .

***

ولما رحل تيمور عن دمشق ، وقد اصبحت اطلالا لا مال فيها ولا رجال ولا مساكن ولا حيوان ، صار من بقي فيها من عسكر السلطان ومن اهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم لا يتركون لهم غير اللباس في وسطهم ، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجر عليهم من جنود تيمور ، فذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا حرمة ، فعزم السلطان الناصر على العودة الى دمشق ثم بلغه ان تيمور رحل عنها وهو مريض فعدل عن

حملته ، وارسل تيمور الى صاحب مصر (سودون) نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قريبه الذي كان اسر في ايام الملك الظاهر برقوق وانه اذا اطلقه يطلق ما عنده من الامرى ، فاطلقه وكساه واحسن اليه ، فلما وصل جماعة السلطان ومعهم قريب تيمور الى معسكره اكرمهم واعتذر مما وقع منه ، وقال هذا كان مقدراً ...

وقد رحل تيمور عن دمشق ولم يتعدها الى فلسطين فسلمت سورية الجنوبية من شره ..

وكانت اكثر المدن الصغرى في اواسط سوريا قد خضعت له بحكم الطبيعة ومنها طرابلس وقد احضر له منها مال ، واجتاح بعلبك ونهبها ، ولما وصل الى حلب حرقها مرة ثانية وهدم ابراج القلعة واسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل امراء كل من وجدهم في طريقه واخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم ، والواقع ان تخريبات تيمور في البلاد السورية لا يتأتى وقوع مثلها في مئات الاعوام ، عملها بجيشه الجرار في عشرات من الايام .

قال تيمور ان ما فعله كان مقدراً ، فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين ، بيد انه كان مغرى بغزو البلاد الاسلامية كما يظهر لانه لم يترك قطراً اسلامياً الا تناوله بالبلاء والمحق

حتى انه كان يريد غزو افريقية كما فتح آسيا ، يقال انه لما اجتمع بابن خلدون المؤرخ المغربي المشهور سأله :

— اين بلدك ؟

فقال ابن خلدون :— بالمغرب الجواني

فقال — وما معنى الجواني في وصف المغرب ؟

فقال — هو في العرف معناه الداخلي اي الابعد .

فقال له تيمور : اريد ان تكتب لي بلاد المغرب كلها اقاصيها وادانيها وجبالها وانهارها وقراها وامصارها .

فكتب له ابن خلدون ما طلب ، فدفعه تيمور الى احد رجاله لترجمته الى اللسان المغلي ، ثم هرب ابن خلدون الى مصر ناجياً بنفسه مخافة ان يأخذه معه الى بلاده .

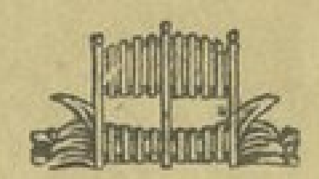
وكان ابن خلدون قد قدم الى تيمور يوم اجتماعه الاول به علب حلوى مصرية فتحها تيمور واطعم منها رجاله ولم يذقها واهداه سجادة صلاة فوضعها الى جانبه ، واهداه مصحفاً شريفاً فقبله ووضعه الى جانبه ، وكان تيمور يتظاهر بالتدين والتصوف كثيراً ، وان كان في الواقع قليل الدين ضعيف الايمان

ولو قدر للبلاد ان يكون فيها سلطان يحسن الانتفاع بالقوة ويحالف سلطان العثمانيين وغيره من امراء الشرق ويجمعوا شملهم ويصادموا تيمور لما فتحوا له باباً للتوغل في البلاد الاسلامية واقتحام

مدنها وتحطيم اسوارها وحرق منازلها وسبي رجالها ونسائها ، ولكن هؤلاء القوم كانوا في شاغل عن المصلحة العامة بمصالحهم الخاصة فكان ما كان من سوء تدبيرهم ، وتفرق كلمتهم وتمزق وحدتهم .

بيد انه لم يكن في مصر ولا الشام في ذاك العهد رجل سياسي بعيد النظر صادق الرأي ، فكان ما كان ، لان البلاد اصبحت بلا راع يرعاها .

والغالب ان السبب في مغادرة تيمور للبلاد السورية انتشار الجراد فيها حتى اكل الناس اولادهم ، فاصبح من المتعذر عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم ، وبهذا الرأي قال ابن حجر فذكر ان رحيل تيمورلنك انما كان لضيق العيش على من معه ، فخشي ان يهلكوا جوعاً .



٢١

الدم والنار في بغداد !

غادر تيمور البلاد السورية الى ضفاف نهر الفرات ، فوصل اليها في صيف سنة (١٤٠١) واقام فيها مـدة ، يستمع الى اخبار عاصمته وبلاده وتقارير عيونه ووزرائه عن اخبار الترك وشأنهم وقد كانت ترسل اليه يومياً من سيواس المدينة التركية التي افتتحها قبل نزوله على البلاد السورية .

وكانت اخبار سيواس كثيرة الاهمية لدى تيمور لما يعرفـه من مناعتها الحربية ولأنها طريق سلطان العثمانيين بيزيد الملقب (بالصاعقة) للوصول اليه فيما اذا اراد مهاجمته وحربه ، وقد لا يبعد ان يهاجم المدينة لاستردادها فكان تيمور يريد ان لا يؤخـذ على حين غرة .

اما اخبار بغداد فكانت تتلخص في ان حاكمها السلطان احمد قد غادرها بجنده للانضمام الى الجيش العثماني ، وانه اقام فيها نائباً وامره بتسليم المدينة الى تيمور اذا حضر بنفسه فاتحاً ، وان يحارب سواه من القواد ، ويما كرهم ريثما يصل الترك الى معونته وانجاده .

فلما سمع تيمور بهذه الاخبار اصدر امره بالرحيل الى بغداد ، فوصلها بعد مشقة وعناء ، وبعث يخبر نائبها بقدومه فأبى تسليمها، وراح يحتمي وجنده وراء حصونها واسوارها ، فغضب تيمور لذلك لانه كان لا يريد محاصرة المدينة لما في ذلك من المشقة والتعب خصوصاً وان رجاله بحاجة شديدة الى الراحة بعد هذا الجهاد المنهك، وبعد هذا السفر الطويل من البلاد السورية الى ما بين النهرين ، ثم ان جند تيمور الذي كان يريد به مقاتلة العثمانيين كان في تبريز وكان من الحق ان يكون هو بنفسه في مثل هذا الوقت بين جنده وجيشه ، ولكن الشقة كانت طويلة والحر شديد ، فلم يوفق في حسابه ... هذا الى ان بغداد مفتاح دجلة ، ومركز حصين لجيش السلطان المصري ، وآخر حصون اعدائه في آسيا الصغرى فليس من الحكمة ان يتركها وان ينصرف عنها ، وقد يكون لها اثر بليغ في المعارك المقبلة التي كانت واقعة حتما بينه وبين الجيوش التركية .

وفكر تيمور برهة قصيرة ثم اعتزم محاصرة المدينة واقتحامها فارسل اوامره على البريد الى ابنه (شاهروك) بان ينزل اليه بعشرة فرق من الشمال وان يحمل معه ادوات الحصار وغيرها ، وارسل مثل ذلك الى ابنه سليمان القائم مكانه في سمرقند بالقدوم اليه مع الجند الذي لديه .

ولما جاء (شاهروك) بجنده امر رجاله و كان عددهم يبلغ المئة الف نسمة بالمظاهرة حول اسوار المدينة لعل في هذه المظاهرة ما يحمل سكان بغداد على طلب الصلح والتسليم ، ولكن شيئاً من هذا لم يقع ، وظل سكان بغداد يعتصمون باسوارهم ، فاغضب ذلك تيموراً وراح ينصرف الى محاصرة المدينة بشدة وقوة وحمق .

ونصبت آلات الحصار واخذت الحجارة تندفع نحو الاسوار فتهدم بعضها حيناً وترتد مدحورة حيناً آخر ، حتى تمكن التتار من افتتاح ثغرة في جانب من السور ، ولكنهم وجدوا ان البغداديين اقاموا وراء السور الخارجي سوراً آخر ، وقد اخذوا مكانهم في أعلاه ، يدفعون عن مدينتهم عادية الغزاة ويرمونهم بالحجارة والاقواس .

وكان الحر شديداً لاهباً ما يستطيع المرء معه ان يقضي في الشمس المحرقة برهة من الزمن ، حتى لقد كانت الطيور تسقط من الجو لا حراك بها ، وحتى كان يضطر التتار انفسهم ما بين حاشيتي النهار الى الاختباء في الظل ، لا يظهرون للعيان الا في اول النهار وآخره .

ولكن تيموراً لم يضرب ضربته القاضية الا في رابعة النهار ، وفي منتصفه ، وهو الوقت الذي ينصرف فيه البغداديون عادة للراحة ظناً منهم ان احداً لن يهاجمهم في مثل هذه الساعة المحرقة ، وبذلك تمكن تيمور من اقتحام احد جانبي السور ، وعندئذ امر

رجاله كلهم بالهجوم ، وكانت ساعة يشيب من هولها الاطفال ، فاصبحت دار السلام ، دار الدم والضنك والقتل والسلب والنهب ، واما القتلى فليس بعدهم حاسب ، ولا يستطاع لهم حصر ، لقد اخبر مؤرخو تيمور نفسه انهم يبلغون تسعين الف نسمة ، وان مئة وعشرين سارية من رؤس القتلى نصبت في الارض الفضاء ..

اما الاسوار فقد دمرت ، وكذلك المنازل احرقت ، ولم يترك تيمور في بغداد غير بعض المساجد ، وكذلك كانت نهاية بغداد عاصمة العباسيين ومفخرة البلاد العربية في ذلك الحين

ولئن اعيدت عمارة بغداد بعد ذلك العهد الا انها اضاعت مكانتها السابقة العالمية التي كانت تتمتع بها وتفخر بها على المدن والعواصم واصبحت مدينة عادية لا شأن لها في سياسة العالم العربي، ولم يكتف تيمور باحراق المدينة والفتك بسكانها بل راح يبعث بخبر سقوط عاصمة العباسيين الى جميع المدن والحواضر في مملكته والى بيزيد ملك العثمانيين ايضاً .

لقد سقطت بغداد في حزيران سنة (١٤٠١) وفي تموز من السنة نفسها اسرع تيمور يبعض جنده الى تبريز حيث المقر العام ، وترك بقية جنده يتبعه على مهل ومعه التحف والاسلاب التي نهبها في فتوحاته ، وبذلك انتهت معارك تيمور الاولى في البلاد العربية .

وانه لعجب حقاً ما يجده المؤلف في تصويره لهذه المعارك

الهائلة من براعة في القيادة وخبرة في فنون القتال ، وامعان في السفك والبطش والسلب ، مما ليس في تاريخ الشعوب من متقدمة ومعاصرة مثيل له ، فلقد تمكن تيمور في اشهر قليلة من اكتساح العالم العربي مع صعوبة المواصلات وبعد الشقة واستطاع اقتحام ما يقرب من اثني عشر مدينة محصنة ، وان يضع السيف في مئات الالوف من البشر ثم يعود بعد كل هذه المعارك ظافراً رابحاً غانماً .

ووصلت في هذه الاثناء الفرق التي طلبها تيمور من سمرقند بقيادة ابنه سليمان ، فامرها بالنزول وانتجاع الراحة ، مقدمة للمعركة الفاصلة التي ستقع قريباً بينه وبين الجيوش العثمانية .

وراح تيمور يصرف وقته في هذه الاثناء في دراسة طرق المواصلات التجارية بين بلاده واوربا وافريقية ، كما انه كتب بواسطة مطران (السلطانية) كتاباً الى شارل السادس ملك فرنسا هذا نصه :

« الامير تيمور كوركان زيد عمره .

فليقبل ملك فرانسا مائة الف سلام من هذا المحب واخلاصاً كثيراً بقدر الدنيا ، وبعد الدعاء لكم يعرض لرأيكم العالي انت ايها الاخ الكبير ، ان فرنسيسقوس الاخ الراهب الواعظ حضر لطرفنا واحضر معه مكتوبكم الملوكي ، وتحدث لنا ايها الامير الكبير عن صحتكم واحوالكم ، فسررنا جداً ، وبهذه المناسبة

نخبركم اننا ذهبنا بعساكرنا الجرارة لمقاتلة اعدائنا وعدوكم وقدنصرنا الله عليهم ، واضمحل شأنهم ، ورجائي اليكم ايها الامير الكبير ان تواصلونا برسائلكم نطمئن بها عن صحتكم واخباركم ، والرجاء ان تنظروا الى تجارنا الذين يذهبون الى بلادكم بعين العناية والاكرام كما نفعل نحن مع تجاركم الذين يأتون الى بلادنا ، فلا تسمحوا لاحد بالتعرض اليهم او بازعاجهم ، واطلب من الله بقاء دولتكم سنيناً عديدة وهي مغمورة بالظفر متوجة بالغار »

وفي هذه الفترة جاء يقصده في مقره العسكري في تبريز بعض تجار جنوى ومعهم كتب سرية من امبراطور القسطنطينية يطلب فيها مساعدته على بيزيد سلطان العثمانيين الذي كان يهدد اوربا ويريد اقتحام القسطنطينية .



٢٢

الحرب الصليبية الاخيرة

كان قياصرة القسطنطينية في القرنين المنصرمين يشاهدون بام اعينهم ضياع اكثر البلاد التي افتتحها اسلافهم وسقوطها في يد الاتراك العثمانيين الذين استولوا على كل آسيا الصغرى والبلقان ، وانتصروا في كل المعارك التي وقعت بينهم وبين خصومهم من اهل البلاد وغيرهم حتى تمكنوا من الوصول الى بلاد المجر ...

وكان الترك قوماً بواسل ، ينعمون بشجاعة غريبةٍ وجرأة عظيمة ، ويفدون انفسهم في سبيل سلطانهم ، واذا كانت فرسانهم كغيرها من فرسان البلاد التي افتتحوها . فقد كان جيشهم المؤلف من الانكشارية مما لا يقاوم ، كما ان تزوجهم من نساء المدن التي كانوا يفتتحونها كان يبدل كثيراً من نسلهم التركي الاسيوي ويجعل عليه مسحة من الاوربية المعاصرة .

اما سلطانهم بيزيد فقد كان لا يختلف كثيراً عن اجداده في اخطائه وحسناته ، متردداً ، شجاعاً بطاشاً ، فلما جلس على عرش

السلطنة قتل شقيقه ، واخذ يحارب من حوله حتى وصلت جنوده الى حدود النمسا فزاد هذا الانتصار في جرأته واخذ يحدث رجاله بما يعتزمه من السير الى فرانسا نفسها واقتحام اوربا باكلها .

وقد احاط بالقسطنطينية ، فلم يترك لها من الارض الا ما يقع داخل الجدران والحصون ، وكان امبراطورها عمانوئيل يدفع له الجزية كي يترك له العاصمة البيزانطية ، وكذلك كان سكان جينوى وفينيس يتعاملون معه كما كانوا يتعاملون مع كل سلطان او مليك فشا امره ، واستطار شأنه .

ولكن القسطنطينية كانت منذ نشأ العثمانيون وما تبرح حتى ايام بيزيد مطمح انظار هذه الدولة الفتية وسلاطينها ، وكان اقصى ما يتطلبه واحدهم ان يقتحمها ، فتكون عاصمته ومقر عرشه .

ولقد حاول الاسلام منذ نشأته وفجره الوصول الى هذا المعقل الحصين ، ولكن حصون المدينة وجدرانها ، وهذه السفن الاوربية في بحرها كانت ترد عنها العوادي ، وتمنع الخصوم من الوصول اليها واحتلالها ، وليس ذلك اكراماً للامبراطور الروماني الذي كان يحكمها وانما لانها معقل من معاقل المسيحية ، وبسقوطه يكون بمسور الاسلام ان يتقدم نحو اوربا دون ما رادع ولا حاجز

وكاد بيزيد يتمكن منها وتتم له الغلبة عليها لولا ان نادى مناد في اوربا بالحرب الصليبية على الترك وسلطانهم ، ورفع صوته

عالياً بهذه الدعاية (سيكسموند) امير المجر خوفاً من وصول الترك اليه ، واحتلالهم بلاده .

وايده في ذلك الامير فيليب دي بورجون لاسباب يعرفها ، وكانت الحالة في اوروبا هادئة لا قلاقل ولا حروب فيها ، فصادفت هذه الدعوى هوى في نفوس النبلاء من ابناء المسيحية فلبوا دعوة الصليب .

وايد كثير من الملوك هذه الحرب ، كملك فرنسا وانكلترا ، وانضم الى القوة الزاحفة كثيرون من مختلف المدن الاوربية ، فكان هؤلاء الاقوام في اختلاف اجناسهم وتقليدهم ولغاتهم اشبه الناس بجيش تيمور نفسه الذي اتينا على وصف ابن عربشاه له في فصل سابق . على انه من الحق ان يقال انه كان هناك بين هذه القوة كثيرون من اعرق الاسر المسيحية ، من نبلاء وامراء وقواد ورجال الدين وغيرهم ، وكانت الاكثرية من الافرنسيين بقيادة الكونت دي نفر شقيق ملك فرنسا نفسه . وكان يبلغ عدد هذه القوة عشرين الف نسمة .

فلما انضمت الى جيش سيكسموند امير المجر بلغ عددها مئة الف ، حتى لقد بلغ الزهو بكثير من النبلاء لما نظروا الى كثرة عددهم ان قالوا ان بميسورهم ايقاف السماء اذا ما سقطت عليهم برؤوس حرابهم .

والواقع ان النبلاء لم يكونوا يعرفون شيئاً عن بيزيد ورجاله وجيشه، و كانوا يظنون ان جماعة الاسلام الذين يهددون القسطنطينية هم من سكان مصر وايران والبلاد العربية ، وان مراكز هؤلاء بعيدة عن القسطنطينية وخارج حصونها ، وكان اكثر ما يخافونه هرب بيزيد ورجاله من امامهم ، قبل ان يصلوا اليه فيقطعونه ورجاله بسيوفهم ويزحفون بعد ذلك على فلسطين ·

ووصل الصليبيون الى الدانوب فوجدوا السفن الفينيسية الحربية بانتظارهم ، وكان كل شيء في الواقع يسير على احسن حال ولم يكن هناك في الافق ما يهدد بشر ، او ينبيء بمصير فظيع ·

سقطت القوة الصليبية على الحدود التركية فاعملت في اهلها قتلا وحرقاً ، وما كان يدور بخلد الصليبيين ان جماعة الصرب من رعايا بيزيد هم من المسيحيين ، وان الرحمة بهم اوجب ، والعفو عنهم اقرب ، ثم نصبوا خيامهم في الارض التركية وراحوا يأخذون لنفسهم بعض الراحة ·

وبلغ العجب اشده برجال الجيش الصليبي لما اخبروا ان بيزيد متقدم اليهم بجنده ورجاله ، وان قواته عظيمة ·

لقد كانوا يظنون انه سيظل بانتظارهم في الارض الاسيوية وانه حين يعلم بقدومهم ، لا بد ان يهرب من امامهم ويترك لهم بلاده يعملون فيها فتحاً وغزواً ·

وعندئذ اخذوا بترتيب صفوفهم ، وطلب سيكسموند من النبلاء — وكان يعلم قوة الاتراك — ان يأخذوا مكانهم وراء جيشه ، وان يتركوا للفرق المجربة وغيرها امر الثبات امام الهجوم التركي الاول ، ولكن هذا الرأي اغضب النبلاء ، وظنوا ان سيكسموند يريد ان يعود الفضل له في هزم الاتراك والانتصار في المعركة.

وعندئذ جمع النبلاء صفوفهم وهجموا على طلائع بيزيد — وهي طلائع كانت للاستكشاف ليس الا — ، فردوها واخذوا يتقدمون بقدر ما تستطيع خيولهم من العدو والجري ، فلما اقتربوا من الجيش التركي وكان يقرب عدده من ستين الفاً ، لم يحرك بيزيد فرقة من جنده لردهم بل امر رماته بان تصوب اقواسها الى خيولهم فترديها ، فاحدث هذا تأثيراً عظيما في صفوفهم ، وسقط بعضهم وهرب البعض الاخر ، ثم اخذ الاتراك يطاردون المنهزمين حتى التقى الجيشان وكان سيكسموند قد ظل مكانه لا يحرك ساكناً وهو ينظر الى نهاية الفرسان النبلاء المحزنة ، لا يستطيع ان يستطيع ان يساعدهم ولا ان يتقدم بجيشه الى نجدتهم مخافة ان يطوقه الترك فيهلك وجنده .

وبتقدم الاتراك ، وهرب الفرسان من امامهم اسقط في يد جيش سيكسموند نفسه واضطربت معنوياته وضعفت روحيته ، فارتد مسرعاً الى النهر حيث كانت تنتظره العمارة الفينيسية بجد

فيها ملجأ ومأوى ·

وامر بيزيد بقتل النبلاء الفرسان الذين اسروا في حومة الوغى لانهم قتلوا السكان الآمنين من رعاياه وبينهم بعض المسيحيين من سكان الصرب كما قدمنا ، ولم يستبق منهم غير بضعة نفر بينهم شقيق ملك فرنسا ، الذي دفع شقيقه لاسترداده مبلغاً عظيما من المال جعل موازنة دولته وموازنة الدول التي امدته بالمال لهذا الشأن في عجز عظيم واما الفدية فكانت مائتي الف قطعة ذهبية

***

يقول احد الاسرى الذين اطلق سراحهم بعد دفع الفدية ان بيزيد قال لهم :

« ارجو ان تعودوا كرة ثانية ، لان بميسوري ان اصل بجندي الى كل ارض يهمني امرها واريدها »

والواقع ان هذه الكلمات ، وما شاهده الصليبيون من قوة الاتراك وبأسهم قضت على كل امل في نجاح حرب صليبية اخرى ولذلك لما راح امبراطور القسطنطينية عمانوئيل يطلب مساعدة الامراء والملوك كرة ثانية على خصمه العنيد القوي لم يتقدم احد لمساعدته من ملوك اوربا وامرائها ونبلائها ، حتى دفعت الحمية احد مارشالية فرنسا فذهب الى القسطنطينية مع اربعماية من الفرسان ، ولكن ما شأن هذا العدد امام القوة العظيمة ، هذا الى قلة الاقوات

وندرة الذخائر ، وغير ذلك مما كانت تعانيه القسطنطينية من نتائج حصار بيزيد لها ، فقطع سكانها وقوادها كل امل بالوقوف في وجه الاتراك ، وراحوا يدرسون مواد الصلح وكيفية تسليم المدينة .

ولكن حدث في هذه الاثناء ان تقدم تيمور الى الارض التركية واقتحم سيواس كما قدمنا ، فرفع بيزيد الحصار عن القسطنطينية ، واخذ على امبراطورها عهداً بتسليمها له بعد رجوعه من محاربة تيمور ، ونقل جنده الى آسيا لمقاومة عدوه اللدود .



٢٢

تيمور والصاعقة

— معركة انقرة —

نحن الان في اوائل سنة (١٤٠٢) وقد اخذ فيها بيزيد سلطان العثمانيين يجمع جموعه من اوربا الشرقية والاناضول وغيرها ثم جعل مركزه العام في بروسه عاصمة الاتراك الاولى وهي بلد تقع على بحر مرمره وفيها قبور كل سلاطين الترك قبل فتح القسطنطينية .

وكان الجيش التركي مؤلفاً من طوائف مختلفة ، بعضه من الاناضول وبعضه من اليونان ، وبلاد الصرب وغيرها ، وهؤلاء كانوا يعدون عشرين الفاً بقيادة ملكهم (بيرلازار) وكانت ملابسهم كلها من الحديد ، فلم يكن يظهر للناظر اليهم غير عيونهم ، وقد قدر المؤرخون عدد الجيش بمئة وخمسين الفاً من جميع الامم التي كان يحكمها سلطان الترك في ذلك العهد .

وقد تعود هذا الجيش النصر في كل غزواته وفتوحاته ، فكان افراده والحالة هذه على ثقة من انفسهم ، وقد اعتزموا على التضحية في سبيل سلطانهم الذي كان يرتصد الحوادث وهو هادىء القلب

ثابت الجنان ٠

كان تيمور يتقدم اليهم ، وهو امر كان يسر بيزيد ، لان جلة جنده من المشاة ، وهؤلاء كانوا في احسن حال حين يهاجمون فيدافعون وهم في هذه الوضعية ماعرفوا الانكسار ابداً ، خصوصاً وان الارض الوعرة في آسيا الصغرى كانت توافقهم ، و كانوا يعرفونها كل المعرفة بخلاف التتار الذين كانوا يتقدمون في ارض يجهلونها ، ولا يعرفون مفاوزها وسبلها ٠

و كان هناك في القرب من سيواس طريق واحد ، فاعتزم بيزيد ان يأخذ مكانه ، ويجعل معسكره ، ويضم مسالحه في هذا الطريق نفسه ، لانه كان يعتقد ان جنود تيمور ستمر به حتماً ، ولا سبيل لها للتقدم الى الامام غيره ٠

وتقدم بيزيد الهوينا نحو الشرق حتى وصل الى ضواحي انقرة فحط رحاله ونصب خيامه وامر جنده بالنزول والاستراحة مدة ، ثم تقدم منها الى ضفة النهر فاخبرته عيونه ان تيمور في جهة سيواس فاتخذ لجيشه مكاناً يبعد عن مقر تيمور بمقدار مسيرة يومين للراجل واخذ ينتظر خصمه ٠

انتظر اياماً ثم اسبوعاً ... ثم حملت له عيونه بعض سكان سيواس ، فاذا التتار ليسوا فيها ، وانما فيها جماعة صغيرة منهم واما جيش تيمور فليس يعلم احد مكانه ، ولكنهم يعلمون انه ذهب

لمحاربة الاتراك ..

واسقط في يد بيزيد ، لان تيمور لم يكن في الطريق الواقعة بينه وبين سيواس ، والتي اخذ ينتظر خصمه فيها ... ثم ان طلائعه التي ذهبت شمالا وشرقاً وغرباً ، جاءت تقول انهم لم يعثروا على جيش تيمور الذي اختفى ، فلم يعد يعرف احد اثره .

و كان هذا الموقف غريباً لدى الاتراك ، فقد كانوا قد اتخذوا اهبتهم للحرب منتظرين خصمهم في ارض وعرة المسالك صعبة السبيل ، ثم ان عدم معرفتهم بمكان خصمهم ليس من الحكمة العسكرية في شيء وقد يقع عليهم ما ليس بالحسبان ، ومع ذلك فقد رأى بيزيد ان يقبع مكانه وان لا يحرك ساكناً حتى يعرف مقر خصمه .

ولم يطل ذلك كثيراً فقد هجمت بعض طلائع تيمور على الجناح الايمن وتمكنت من اخذ بعض الاسرى ، فترك بيزيد مكانه واسرع الى حيث حدثت الحادثة ثم بعث طلائعه تتعرف على مقر تيمور ، فاذا به قد اختفى ثانية ، فارسل عندئذ بيزيد ابنه سليمان مع فرقة من الجيش ، فرجع هذا يقول ان تيمور قد مشى بجيشه نحو انقرة ، وعندئذ اخذ بيزيد يعود بجيشه الى المكان الذي كان قد تركه قبلا وهو يشتد في السير والجد .

والواقع ان خطة تيمور كانت بسيطة جداً فانه حين رأى

الارض التركية ودرس طبيعتها وعرف صعوبتها وجد انه يصعب على فرسانه المحاربة فيها ، وانه والحالة هذه لن يوفق في معركة مع بيزيد اذا كان هذا قد اخذ لنفسه وجنده مكاناً ملائماً ، فراح عندئذ يحاول ان يجلب خصمه اليه ، وسار بجنوده على ضفاف النهر بالقرب من انقرة حيث المرعى حسن والكلاء كثير ، ثم ارسل بعض طلائعه للاصطدام مع جناح بيزيد الايمن ، فلما قامت بعملها انطلقت مسرعة الى حيث يقيم تيمور في كوش حصار .

***

كان تيمور يقول لرجاله في هذه (القرية) بعد ان انتظموا مجلساً امامه :

« بميسورنا ان نفعل احد امرين اما ان نقيم هنا ننتظر هجوم الترك علينا ، او نتقدم الى بلادهم فنحرقها ونهدمها ونحملهم على الجري خلفه ، ولما كان اكثر جند بيزيد من المشاة فان المشي يضرهم ويتعبهم ، . . .

وبعد ان سكت برهة قال :

— «وهذا الرأي الاخير اصلح الاراء وهو ما سنفعله .»

تقدم تيمور بجيشه بعد ان بث طلائعه واخذ اهبته حتى وصل الى ضواحي انقره ، فامر بمحاصرتها ، واخذ يراقب بنفسه الارض التي كان بيزيد قد اخذ مراكزه فيها ، ثم امر رجاله بردم عين

الماء الوحيدة التي كانت في هذه الجهة وبوضع السم فيها ، ولكنه قبل ان يبدأ بحصار انقرة اخبرته طلائعه ان الترك يتقدمون نحوه ، وانهم لا يبعدون عنه اكثر من اثني عشر ميلا ، فترك انقره جانباً واتخذ لنفسه مكاناً موافقاً ، وامر جنده باشعال النيران وحراسة المكان

واما الاتراك فلم يظهروا الا في صباح اليوم التالي . وقد كانوا اخذوا ينهبون الارض مدة اسبوع كامل ، حتى لحقوا بعدوهم وقد قل معهم الماء ، واحرق التتار العشب في طريقهم ، فوصلوا والحالة هذه وقد تملكهم التعب ، واضناهم بعد الشقة ، واثر فيهم العطش وقلة الغذاء .

وكان النهر خلف جيوش تيمور فلم يكن امام الترك من سبيل الى الماء الا بالهجوم على خصومهم وازاحتهم عنه

وقد وجد بيزيد نفسه يحارب خصومه في موقف يعرف معه انه لن يبلغ النصر الذي يريده فيه ، وعرف ايضاً ان التتار قد سخروا به ، وحملوه على هذا الجري السريع ليصل اليهم وجيشه خائر القوى مضطرب النفس شديد الضعف ، وكان يعلم ان هجومه سيكون بواسطة فرسانه ، وفرسان التتار اشد منهم بأساً واكثر عدداً ، فلا بد لهم والحالة هذه من الانتصار عليهم ، ولكن ما العمل والظروف قد اجبرته على هذا الموقف ، ولم يكن بيزيد بالجبان ، فلما رأى نفسه في مثل ما ذكرنا عزم على ان يحارب خصمه بكل

قوته والنصر من عند الله

ولم يركب تيمور حصانه الا في الساعة الاخيرة ، فقد كانت المعركة بيد قواده واولاده يسيرونها وفاقاً للاوامر التي اعطاهم اياها وكان حفيده الامير محمد يقود جيش سمرقند وقد اخذ مكانه في وسط الجيش وتفرقت بقية الامراء والقواد بين الميمنة والميسرة ، كما وضعوا الفيلة التي جلبها تيمور معه من الهند في مكان خاص ظاهر ليكون لها التأثير المطلوب على قلوب العدو .

وكان هجوم الفرسان بقيادة الامير سليمان ابن بيزيد ولكنه لم يوفق ، واتخذت المعركة عندئذ صورة هائلة فقد اندفعت جموع التتار بقيادة الامير محمد والتى كانت قد اخذت مكانها في الجناح الايمن ، فاخترقت ما امامها ، واضطربت صفوف الترك لهذه الصدمة وظهر الضعف عليها ، وكان في جيش بيزيد جماعة من التتار فلما اشتدت المعركة تركوه وانضموا الى تيمور واخذوا يحاربون تحت لوائه .

وحمي الوطيس وتمكنت فرسان تيمور من الترك ، واخترقت جبهاتها مما اضطر بيزيد الى ان يأمر بالهجوم العام ولكن هذا لم يفده ابداً فقد كان الوهن قد دب في جيشه فلم يستطع ثباتاً امام جموع التتار ، واراد بيزيد النجاة بنفسه فلم يوفق واخذ اسيراً وحمل الى خيمة تيمور وكان ذلك في آخر النهار .

يقول الرواة ان بيزيد لما حمل الى خيمة تيمور كان هذا يلعب بالشطرنج مع (شاه روك) فلما رآه مقبلا ظهرت الابتسامة على وجهه فقال له السلطان :

— ليس من الخلق ان تبتسم امام شخص قدر الله عليه هذا .

فاجابه تيمور :

— اني اضحك لان الله قد اعطى ملك العالم لرجل اعرج مثلي واعمى مثلك . . .

ثم قال بعد برهة :

— على اني اعرف ما كان يكون مصيري ومصير رجالي لو تمت الغلبة لك !

فلم يجبه بيزيد على كلامه هذا ، ثم امر تيمور بفك قيوده واجلسه الى جانبه ، فطلب السلطان من تيمور ان يبحثوا عن اولاده فجاوه بموسى فقط لان بقية اولاده كانوا قد تمكنوا من الهرب والنجاة .

***

ولما احتل الامير نور الدين (بروسه) عاصمة العثمانيين حمل الى تيمور كل ما فيها من التحف والجواهر ، وما في حرم السلطان من نساء وسراري وخدم وحشم ، وعاد الجيش وقد حمل كل فرد من افراده نصيبه من الغنيمة ، وفي مساء اليوم نفسه اقيمت حفلة

عظيمة في معسكر تيمور كما هي العادة المتبعة بعد كل انتصار اجبر تيمور السلطان على حضورها ، حيث شاهد نسائه تقوم بخدمة امراء تيمور وقواده ٠

ولقد كان هذا اكثر مايستطيع ان يتحمله ملك غلب على امره كبيزيد ، وقد كان في سابقات الاعوام لا يعرف جيشه الا الانتصارات ، ولا يمشي قواده الا من فتح الى فتح ومن نصر الى مثله ...

والواقع ان تيموراً كان يفكر في هذه الحفلة بالكتاب الذي بعث به الى بيزيد — قبل تقدمه لفتح البلاد العربية — يرجوه فيه ان يترك صاحب بغداد وقرايوسف التركماني وشأنهما ، وكيف اجابه السلطان بالتهديد والوعيد ، ولعله اراد من احضاره الى هذه الحفلة ان يريه بنفسه الواناً من التحقير لم يرها قبل يومه ٠

على ان بيزيد لم يطل عمره كثيراً بعد اسره ، فقد توفى بعد اشهر ، وظلت مملكة العثمانيين بدون سلطان مدة تسع سنوات تقريباً حتى تمكن احد ابنائه من التغلب على عوامل الشقاق ، فرجعت الدولة العثمانية بعده الى امجادها وعظمتها السالفة ٠

***

وبفشل الجيش التركي نجت العاصمة البيزانطية من السقوط وامتد اجلها سنوات اخرى ، حتى تمكن السلطان سليم العثماني من

فتحها واقتحامها ونقل عاصمته اليها .

ولا بد من الاشارة في هذا البـاب الى ما كان لفتوحات تيمور من مصاير عظيمة في تطور التاريخ الاوربي ، فلولا ما اصيب به الترك من فشل في معركة انقرة ، ومن تضعضع وتبلبل وانقسام بعد ذلك ، حتى انهم ظلوا تسع سنوات دون ما سلطان ، لامتدت فتوحاتهم في اوربا الى مدى بعيد ، ولكان بيزيد قد دخل القسطنطينية ، وفتحت هذه قبل تاريخ فتحها الحالي بخمسين سنة ، ولاتجه التاريخ المعاصر والمتوسط الى ناحية غير الناحية التي يتجه اليها الان ...



٢٢

على ابواب اوروبا

كان انكسار الترك عظيما بحيث تم لتيمور الغلبة عليهم بمعركة واحدة ، فسلمت له انقرة وسقطت بروسه وغيرها من المدن التركية، وهرب الترك من الامراء والباشاوت والجند الى اوربا ، وحاول التتار ان يتأثروهم بفرسانهم وان يقضوا عليهم فلم يوفقوا لان السفن اليونانية والجنوية راحت تساعد الترك على الانتقال ، من الضفة الاسيوية الى الاوربية وحفظت بذلك لهم خط الرجعة ،وقد راح بعض المؤرخين يعجب من مساعدة اليونانيين البيزانطيين للترك في حربهم وهم خصومهم واعداؤهم ،ولعل سبب ذلك رغبة هؤلاء في مسالمة كل قوي ،او لعل الترك استمالوهم ببعض المال فوضعوا سفنهم تحت تصرفهم ، ولكن هذا جعل التتار ينقمون على اليونانيين،لانهم وعدوهم بالمساعدة اذا ما حاربوا الترك ، فلما ارادوا تتبع بقية الجند التركي الهارب راح هؤلاء يساعدونه ، وابوا ان ينقلوا لتيمور جندياً واحداً من جنوده الى الضفة الثانية ، ولم يمض شهر واحد على

هذه الحوادث التي ذكرناها حتى لم يبق في آسيا جندي تركي واحد فقد انتقلوا جميعهم الى اوروبا وكذلك لم يكن في اوروبا ولا واحد من التتار .

فكان الفرسان التتار يصلون بخيولهم الى ضفة البحر يتأملون القبب العالية الجميلة التي كانت تزين القسطنطينية ، دون ان يكون بيسورهم الوصول اليها واختراق حصونها ، وفي هذه الاثناء وصل التتار الى ازمير وكانت فيها حامية من نبلاء (سانت جورج) فتقدم اليها تيمور يتفحصها ويمعن النظر في مواقعها خصوصاً وقد بلغه ان بيزيد صرف ست سنوات في حصارها ، ثم راح يحاصر القلعة وكان يعتصم فيها بعض المسيحيين من نبلاء سانت جورج كما قدمنا ، فحاربوه مدة اسبوعين واعتصموا بحصنهم لا يسلمونه حتى اشتدت وطأة الحصار عليهم فتركوا الحصن ولجأوا الى السفن الراسية في بحر ازمير ، واستولى التتار على الحصن ، ولكنهم غادروه والمدينة بعد ان تركوا فيها اثراً يدل على مرورهم بان اقاموا اهرامين من رؤوس القتلى .

واما صاحب بغداد فقد هرب الى مصر حيث نزل في قصر سلطانها ، وذهب قرايوسف التركماني الى الجزيرة العربية ، لانه لم يكن يظن ان مصر ستقف في وجه تيمور ، وانه لا بد محاربها ومستول عليها ، فظن ان البلاد العربية اكثر اماناً ، وابعد مدى

والواقع ان سلطان مصر خاف تيموراً كل الخوف بعد انتصاره العظيم على بيزيد ، فتقدم اليه بالطاعة وارسل له الهدايا ، وسجن صاحب بغداد ارضاء لتيمور

واما ملوك اوروبا فقد وقفوا مدهوشين ذاهلين ، فقد كانوا يعتقدون بقوة الاتراك وجرأتهم ، وانهم قوم لا يغلبون ، ثم دارت الايام فاذا بهذا الفاتح التتاري يأتي من اقصى الارض لمحاربة الترك في عقر دارهم فيغلبهم ويأخذ سلطانهم اسيراً وتنهار مملكته بضربة سيف واحدة

ولقد تقبل بعض ملوك اوروبا هذه الحوادث العظيمة كامر واقع فكتب هنري الرابع ملك انكلترا ، يهنيء تيمور بانتصاراته وتذكر شارل السادس ملك فرنسا رسالة تيمور اليه مع مطران السلطانية ، فبعث اليه ، وارسله في مهمة الى بلاد تيمور ومعه كتاب وبعض الهدايا .

وعاد عمانوئيل امبراطور القسطنطينية مسرعاً الى عاصمته ، بعد ان كان يدور اوربا باحثاً مستعطفاً ملوكها وامرائها لمساعدته ، على اعدائه الترك ، فلما تم النصر للتتار عاد الى القسطنطينية يقدم طاعته لتيمور ويبعث اليه بالهدايا والتحف ، واما السفن الجنوية فقد رفعت علم تيمور على مقدمتها ، ولكن الاسبانيين كانوا اكثر الامم اهتماماً بفتوحات تيمور وشانه ، فبعث هنري الثالث ملك كستيل

وفداً من قبله الى تيمور حضر موقعة انقرة التي هزم فيها بيزيد كما قدمنا ، واهدى تيمور الى رجال الوفد بعض سراري بيزيد نفسه وارسل مع الوفد رجلا من قبله لتوثيق العلاقات بينه وبين ملك الكستيل في اسبانيا .

وعاد هنري الثالث فارسل الى تيمور وفداً اخر برئاسة النبيل كلافيجو ، فذهب هذا الى آسيا الصغرى فوجد تيمور قد تركها عائداً الى سمرقند فلحق به وفاقاً للاوامر المعطاة له .

* * *

والواقع ان تيموراً لم يتقدم نحو اوروبا ابداً ، واذا كان طريق البحر مقفلا امامه فقد كان بطوقه ان ينزل الى اوروبا من جهة القوقاس ولكنه لم يفعل ، وسبب ذلك على ما يقال رغبة رجاله في العودة الى مواطنهم ورؤية عيالهم واولادهم . خصوصاً وان افتتاح آسيا الصغرى قد مكن كل جندي من جنود تيمور من ان يجمع لنفسه ثروة لا بأس بها ، كان يريد والحالة هذه ان ينعم بها وعياله وان يصل بها الى مكان امين .

وكان تيمور في هذا الوقت يعمل على تنظيم الشؤون في مملكة الترك ينتخب لها العمال ويستقبل السفراء والوفود التي كانت ترد الى بلاطه من جميع المواطن ، وفي هذه الفترة توفي بيزيد في سجنه ، واخذ تيمور يفكر في فتح جديد .... ، ولكن نزل به مصاب لم يكن يتوقعه

فان ولده الامير محمداً توفي اثر الجراح التي اصابته في معركة انقرة فامر تيمور عندئذ جنده بالعودة الى سمرقند .

لقد خسر تيمور اولاده الواحد بعد الآخر فتوفي فاتح العالم ولده الاول ، ثم عمر شيخ ، وقد اظهر ميران شاه انه غير كفوء لادارة الاعمال والقيام بمهام الدولة .

واما شاه روك فقد كان منذ نشأته ناعماً هادئاً لا يفكر في شؤون الحرب وامور السياسة كغيره وسواه ، ولذلك كان الامير محمد مطمح انظار تيمور ، ومعبود الجيش لشجاعته وجرأته وحسن اخلاقه .

وحملت جثة الامير الشاب الذي قتل في ساعة النصر الى سمرقند تحرسه فرقته التي كان قائدها وقد لبست السواد عليه ، واستمع تيمور بكاء (خان زاده) والدة الامير محمد وعويلها ساكتاً هادئاً ولكنه لم يتمكن من ان يتمالك عواطفه لما ابصر حفيده الصغير ابن محمد ينتظر قدوم والده خارج تبريز ، فاطلق عند ذلك لشجونه العنان وراح ينفرد في جناحه الخاص لا يكلم احداً ولا يجلس الى احد ...

ويعود هذا الفاتح التتاري بالفكر الى ايامه الماضيات فيجدان هناك قوة اعظم منه كانت تأخذ من بين يديه كل اولاده ومحبيه واخصائه . فان اكثر الامراء الذين ساروا معه في اول فتوحاته

اصبحوا تحت الارض ، وقد قام مقامهم اولادهم وحفدتهم ، ومن يدري فقد يكون تيمور قد اخذ يفكر بنفسه ومصيره وانه لا يبعد ان يتبع من سبقه من انصاره واعوانه .

***

ولكنه كان يفكر ايضاً بامبراطور الصين المتحصن خلف جداره العظيم القوي ، و كان يرى ان ملكه ليس مستقراً مادام هذا الامبراطور على عرشه ، وما دامت سلطة تيمور بعيدة عنه لا يعترف بها ، ولا يقبلها ، ولكنه لم يتحدث الى قواده بما يجول في فكره بل انصرف يدبر مهام الملك وينظر في شؤون الدولة في الاشهر التي قضاها في تبريز قبل ان يعود الى سمرقند

ولما وصل الى عاصمته امر بانشاء قبر عظيم لابنه الامير محمد ، و كذلك امر البنائين بانشاء قصر جديد تكون حجارته بيضاء لامعة ، واحس في نفسه قوة جديدة فراح ينظر في ما جرى في غيابه وما قام به نوابه من الادارة والاحسان ، فامر بقطع رؤوس بعضهم واثنى على البعض الاخر من المخلصين ، وقدرهم واعلى شأنهم

***

ومضى تيمور في سمرقند سنتين اخذ يدب الضعف فيها الى جسمه فقد كان بلغ السبعين من عمره ، فبدأ الضعف يدب الى بصره ، واخذ المرض ينتابه من حين لآخر ولكنه كان يجد الوقت لاستقبال

الوفود التي تزوره في قصره ، ومنهم وفد ملك كستيل الاسباني ، وقد وصف كلافيجو رئيس الوفد مقابلته لتيمور كما يأتي :

« ترك السفراء في ٨ ايلول مقرهم الذي خصص لنزولهم الى سمرقند — وهذا يعني انهم كانوا خارج المدينة — فلما وصلوا الى حدائق القصر تقدم اليهم بعض رجال الحاشية وطلبوا منهم ان يسلموا اليهم ما يحملونه من الهدايا الى تيمور ففعلوا وذهب هؤلاء بالهدايا المذكورة ليقدموها الى تيمور نفسه بكل احترام واجلال

ومدخل الحدائق جميل جداً يبهج النظر ، وعلى الابواب وقف كثير من الخدم ، وقد رأى السفراء بعض الفيلة وحولها الموكلون بالمحافظة عليها .

وكان بين السفراء مندوب تيمور نفسه الى بلاط هنري الثالث ملك اسبانيا ، وقد ضحك منه اصدقاؤه التتار لما ابصروه لابساً ملابس الاسبانيين انفسهم .

ثم اخذ السفراء الى الجناح الخاص بابناء تيمور حيث قدموا الكتب التي يحملونها من ملوكهم الى تيمور ، فاخذها احد ابنائه وذهب بها الى غرفة تيمور نفسه ، فسمح هذا بدخول السفراء اليه ومقابلته .

وكان تيمور جالساً على الارض المفروشة بانواع البسط

الشرقية الجميلة وامامه حوض ماء تندفع مياهه الى السماء بقوة عظيمة ، وملابسه من الحرير وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة .

وتقدم الامير نور الدين فاخذ يد السفراء الى مجلس تيمور لان تيموراً كان يريد النظر الى وجوههم عن قرب لضعف نظره

ولم يقدم تيمور يده للسفراء لتقبيلها لان ذلك لم يكن من العادات المتبعة ، وانما راح يسألهم عن ملوكهم وخص بالذكر هنري الثالث ملك كستيل قائلا :

— كيف حال ابني الملك ، وهل هو في صحة جيدة ؟

ثم نظر الى من حوله من الامراء والقواد وقال :

— هؤلاء سفراء ابني ملك اسبانيا الذي هو اعظم ملوك عصره والذي يملك في الشطر الثاني من الارض .

ثم امر بفتح الكتاب المرسل من الملك اليه قائلا :

— انه يريد قرائته والتعرف على مضمونه حالا .

ولما انتقل السفراء الى حجرة ثانية ، جعل بعض رجال تيمور مقامهم دون مقام سفراء ملك الصين (كاتاي) ، فلما رأى تيمور ذلك امر بتقديمهم على سفراء ملك الصين لانهم يمثلون صديقه ملك الكستيل ، واما سفراء ملك الصين فكانوا سفراء لص رديء الاخلاق ...

والواقع ان تيموراً كان كثير الصراحة في حديثه عن ملوك زمانه ورجال عصره ، وان كان كثير التجمل في وعوده ، لا يحافظ عليها الا نادراً ، وفي حديثه عن سفراء ملك الصين ما يدل على رغبته الملحة في محاربته مليكهم وغزو بلادهم ، وهو ما اقره بعد اشهر فقط من هذا الحوار ٠



٢٤

وفاة تيمور

لقد كانت سمرقند في نظر سفراء ملك اسبانيا موطناً جميلا مدهشاً حقاً ، حتى ليحدثنا (كلافيجو) بانه راح يعتقد ان في العاصمة بعض الجن ، ينشطون فيها الى الوان المرح ويعملون على تزيينها وتجميلها بما لا يستطيع قلم كاتب وصفه ، والواقع ان سمرقند في هذا العصر ، عصر السيطرة التتارية المغولية على الشرق كانت عاصمة العالم كله ، يقصدها التجار من اقصى الارض ، وتمر فيها القوافل الى جميع أنحاء العالم .

كثرت بساتينها وزادت عمارتها زيادة مدهشة ، وبلغ عدد سكانها مئات آلاف ، ومشى في شوارعها اصناف الناس واشكال المخلوقات ، وكل هذا كان من صنع تيمور وعمله ، فهو الذي امر بانشاء القصور ، وهو الذي اشار بالعناية بالحدائق ، فلم تقم سمرقند ، ولا استطار شأنها ، وبلغت ما بلغته من العظمة واستبحار العمران الا برأيه وارادته .

***

وطلب تيمور يوماً الامراء والقواد للمثول بين يديه فلما مثلوا خاطبهم قائلا :

— لقد فتحنا العالم كله ، ولم يبق امامنا غير بلاد الصين ، وقد كنتم رفاقي في كل الحروب التي قمت بها ، وتعلمون ان النصر كان دائمًا في ركابنا ، والقضاء على الوثنيين في الصين لا يتطلب جهداً ولا كبير مشقة ، وهذا ماسنقوم به »

ولعل تيمور كان يريد من هذه الحرب الجديدة ان يهدم السور الذي كان يقوم حول البلاد الصينية ويفصل بين بلاده وبينها .

فقد عودنا تيمور في تاريخه ان لا يترك حصناً قائمًا ولا عمارة واقفة ، حتى ولو كانت في اقصى الارض ، وليس في قيامها خطر عليه ولا على مصاير الحكم في الامبراطورية ، فكيف يسكت عن جدار يقوم على مقربة من حدوده ، ولا يبعد ان يندفع من في داخله الى ارضه وبلاده يمعنون فيها غزواً وسلباً ، وقد قامت مملكة تيمور على التضحية وحب قواده وجنده لشخصه كما قدمنا ، لذلك نرى انه ما كاد تيمور يحدثهم بهذه الكلمات ، ويخبرهم بعزمه ، حتى راحوا يطلبون منه التشمير والزحف ، مع انهم كانوا بحاجة الى الراحة والاطمئنان والى ملذات الحياة بين اهلهم وعيالهم ، وليست الاسابيع القليلة التي قضوها في سمرقند بعد رجوعهم من غزو البلاد العربية والتركية كافية لتذهب عنهم ما الم بهم من نصب الزحف

ومشقات الحروب ·

ولكن تيمور أو قومه كانوا رجال حرب وبطش وسفك دماء وليس بطوق جماعة كهذه قد تعودت على هذه الحياة ، واطمأنت الى مصايرها فيها ، وما يتوفر للفرد منها في كل حرب من مال وثراء ، ان تسكن الى الراحة او تستكين الى النعيم والاطمئنان ·

وكان جيش تيمور الذي زحف به على الشرق الادنى لايزال مقيما حول سمرقند ، فما هو الا ان بأمر تيمور حتى يزحف الجيش ويمشي الى الحرب جذلان فرحاً ·

***

وكان الزحف امراً مقضياً فمشى تيمور على رأس جيش عدده مائتا الف مقاتل نحو الصين ، مقسما الى اقسام ، يقود كل قسم امير من امراء تيمور المعدودين ، وتقدم الامير خليل على رأس الجناح الايمن الى الشمال ، وسار تيمور بالقلب الذي كان يقوده الامير محمد وقد حمل معه من الذخائر والاقوات ما لا يحصى عدده ، فقد قصصنا في فصل سابق نفاذ الاقوات لما زحف تيمور لغزو المغول المقيمين في روسيا — اي سيبريا او كرانيا وبلاد الترك — وكيف قلت الاقوات ونزل بجنده مشقات كثيرة ، لذلك رأى تيمور والحالة هذه ان يأخذ اهبته ، فلا يقع في ما وقع به قبلا ، فاستعد للامر اكمل استعداد وحمل معه كل ماهو بحاجة اليه ، والذي لا يكون بميسوره

ان يجد منه في طريقه وزحفه ، لذلك رأينا قوافل الغذاء والعدد كأنها مدن متحركة تسير خلف الجيش ومعها كل حاجات الجيش من الذخيرة والاقوات .

وكان البرد شديداً والثلج ينزل مدراراً ولكن تيمور لم يكن من الرجال الذين تقف في وجوههم حوادث الطبيعة ، فقد اخذ يسير بجيشه لا يلوي على شيء .

هذا الزحف المتعب الجبار ، كان يعوق سير الخيل والبغال التي كانت تحمل الذخيرة والاقوات ، كثر الثلج واصبحت الارض ناصعة البياض ، اضطر حفظة الذخائر الى وضع الامتعة على الارض ليكون بمقدور الخيل ان تمشي وعليها الذخائر ، فلا تغرز في الارض ولا تضطرب في الثلوج وهذا كان يتطلب عناء وجهداً عظيما .

ولكن الجيش وصل الى (اوترا) وهو المكان الذي قرر تيمور قضاء فصل الشتاء فيه ، ثم الزحف في الربيع على الصين ، بيد ان تيموراً لم يعش ليرى زحف جيشه في الربيع فقد توفي في (اوترا) .

وانتقل هذا الملك الجبار الهائل الى العالم اللانهائي .

***

تقول المصادر والروايات القديمة انه لما مرض تيمور وقبع في

غرفته في (اوترا) كان رجاله وقواده يقفون الساعات حول غرفته وخارج قصره ، في البرد الشديد ، والثلج يغمر ارجلهم ويسقط مدراراً على رؤوسهم .

وكانت الامبراطورة (ساري هانم) في القاعة الكبرى وحولها وصيفاتها ، وكانت قد جاءت من سمرقند لما علمت بمرض تيمور .

ووقف امام غرفة تيمور الائمة والعلماء يتلون آيات القرآن ويطلبون من الله الشفاء لمليكهم واميرهم . وقد ظلوا على حالتهم هذه الاسابيع يطلبون من الله الرحمة ، فلم يجدهم كل هذا نفعاً ، وظهرت امارات الموت على تيمور وقال الطبيب لما طلبوا رأيه في مصير المليك « ان المريض العظيم لمآبه » .

واما تيمور فلما احس بقرب اجله قال لرجاله وقواده :

— « عليكم بالجيش فحافظوا عليه ، واعملوا على اتفاق كلمتكم ولا تخاصموا فتفشلوا ، وسيروا نحو الصين ولا تتراجعوا » .

« ولا تمزقوا اثوابكم بعد موتي ، ولا تركضوا من هنا وهناك فان هذا يحدث الاضطراب في الجيش »

وضعف صوته فاصبح خافتاً ضعيفاً .

ثم اشار تيمور الى نور الدين وشاه روك بالاقتراب منه وقال لها :

— اني اعين بير محمد ابن — فاتح العالم — ليكون اميراً بعدي

وخليفتي ، وليكن مقره في سمرقند ، وله الحكم المطلق على الجيش وشؤون الدولة ، واني آمركم بان تخلصوا له كل حياتكم وان تساعدوه في حكمه ، واذا لم تطيعوه اطاعة تامة ، فان الاختلاف والانقسام واقع بينكم .

واقسم الامراء والقواد ورجال الدولة امامه بالطاعة لخليفته ، ثم طلب تيمور بقية ابنائه فاخبرهم برغبته ووصيته ونصحهم بالاتفاق والتفاهم والعمل يداً واحدة .

وكان ذلك آخر حديث لتيمور مع ابنائه وقواده وما لبث ان توفي بعدها بدقائق ، فعلا بكاء رجاله ، ونحيب نسائه ، واصوات العلماء تقول :

— لا اله الا الله ، وحده لا شريك له —



٢٥

انهيار الامبراطورية

ان اليد التي انشأت هذه الامبراطورية الواسعة الاطراف حجراً حجراً قد اصبحت جامدة لا تتحرك ، والارادة التي اقامت عاصمة من اجمل عواصم الشرق لن تستطيع بعد اليوم ان تفعل امراً ، وهذه العبقرية التي كانت تدفع جنود التتار والمغول من نصر الى نصر ومن فتح الى فتح ، قد اصبحت حديثاً غابراً .

لم يفقد نبلاء التتار امبراطوراً عظيما فحسب ، لقد فقدوا شيئاً اكثر من ذلك واعظم ... فقدوا قوة رفعتهم الى اسمى درجات الرفعة والعظمة والسيطرة والمجد ، قوة ثقفتهم ودربتهم وسيرتهم ووحدت بين صفوفهم ، ثم قذفتهم على العالم فكانت لهم الغلبة عليه وكان لراياتهم النصر في كل مكان .

وكان اكثر هؤلاء الاحياء بعد موت تيمور ما يعرفون غيره ، ولا ابصروا النور الا وهو اميرهم وكبيرهم ومليكهم خدمه آباؤهم قبلهم وماتوا في سبيله ، ثم قام هؤلاء الابناء بخدمته والترويج لسياسته وفتوحاته ، يعرضون صدورهم للموت ، وانفسهم

للسيف ، اشارته امر عندهم ، وامره سيف لديهم ، ورغبته القضاء والقدر ، وهم منذ خمسين سنة ما يعرفون غيره وسواه ولا يتعرفون على غير ارادته وامره .

لقد كان سكان العاصمة والجيش خليطاً من البشر فيهم المغولي وبينهم التتاري ، ومنهم الفارسي والافغاني والتركي والسوري ، وما ندري اذا كانت رغبة تيمور من الجمع بين هؤلاء الاصناف من البشر ، ان يؤلف بينهم ، ويجمع بين اشتاتهم ويخلق منهم جماعة واحدة وامة واحدة .

والواقع ان احترام هؤلاء الاقوام المختلفي النزعات والعناصر لتيمور كان عظيماً جداً ، وكان حزنهم ووجدهم لفقده ظاهراً قوياً حتى ان احداً لم يفكر في مخالفة اوامره بعد موته ، فسار الجيش العظيم نحو الصين يريد غزوها واقتحام حصونها وفاقاً لرغبة تيمور المليك العظيم قبل وفاته .

ولو ان (بير محمد) خليفة تيمور على عرشه لم يكن بعيداً في الهند ، وبين الهند وسمرقند مسافة سحيقة ، وبين سمرقند ومعسكر الجيش في (اوترا) مثل ذلك ، ولو ان (شاه روك) ابنه الاخر لم يكن في خراسان ، وهو اقدر اولاده واجرأهم ، لو ان احد هذين كان مع الجيش السائر الى غزو الصين ، لكان بالامكان ان لا يحدث

انقسام في الامبراطورية ، و كان بالمستطاع ان تحافظ هذه المملكة الكثيرة العناصر على وحدتها وقوتها ولو الى مدة من الزمن .

ولكن احداً من رجال تيمور لم يكن قادراً على القيام مقامه والقبض على اعنة الملك والسلطان باليد الحديدية التي كان يقبض بها عليهما . فقد اجتمع الامراء فيما بينهم بعد وفاة تيمور وقرروا العمل بمشيئته وغزو الصين ، واتفقوا على اخفاء خبر موته ظناً منهم ان هذا الخبر المفجع لن يتصل بالصينيين خصومهم ، ولن يدفع احداً من هؤلاء الى الظن بان تيموراً قد مات ، وان خلفاءه هم الذين يقودون هذا الجيش الجرار ، يحاولون تنفيذ ارادته واقرار خطته .

وارسلت جثة تيمور مع احد حفدته الى حيث تنتظره الامبراطورة (ساري هانم) وبعث قواد الجيش بالرسل الى (بير محمد) يعلمونه بوفاة والده ويستدعونه للمجيء الى سمرقند ، وقد ارسل الخبر ايضاً الى حكام المقاطعات المختلفة والى الامراء البعيدين .

ولكن الجيش توقف حالا لما بلغ رجاله ان قواد الجناح الايمن الذي يقوده الامير خليل حفيد تيمور وابن ميران شاه قد قر رأيهم على تنصيب اميرهم على عرش الامبراطورية ، وانهم عزموا على الرجوع الى سمرقند ، والتخلي عن الزحف على الصينيين .

واحدث هذا الخبر ضجة عظيمة في المعسكر ، واضطربت النفوس وثارت الخواطر ، واطلق قائد الجناح الايسر سراح جنوده

وكر راجعاً بدوره الى سمرقند ، فاضطر بقية القواد والامراء الى الرجوع بدورهم لانه لم يعد بطوقهم الزحف وحدهم على الصينيين ، وبذلك سلمت امبراطورية الصين ، من حرب ما كان احد يستطيع ان يتعرف على عواقبها ونتائجها .

وكم كان عجب هؤلاء القواد والامبراطورة عظيما لما وجدوا ابواب سمرقند مقفلة في وجوههم ، وقد اعتصم فيها خليل وانصاره ، واغرب من ذلك ان حاكم المدينة راح يبرر موقفه قائلا ، بان الضرورة تقضي بجلوس امير على عرش تيمور ، ولما كان بير محمد غائباً في الهند ، فقد رأى القواد والنبلاء ان يقيموا الامير خليلا على عرش الامبراطورية ريثما يعود (بير محمد) .

***

والواقع ان هذه الخطة المدبرة كانت من صنع (خان زاده) التي رتبت امرها من زمن بعيد ، واما سكان المدينة فقد رضوا بالامر الواقع ، لان تيمور قد توفي بعيداً عنهم ، ولم يسمع احـد منهم وصيته الاخيرة .

ولما رأى الامير نور الدين ما آلت اليه الحالة كتب الى الامير خليل الكتاب التالي :

« ان قلوبنا تتفطر حزناً ولوعة ، حين نرى انه ما كاد الامبراطور العظيم يموت حتى رأينا رجالا لا قيمة لهم ، وقد كانوا عنـده بمنزلة

العبيد يعملون ما يخالف رغبته ووصيته .

وان امبراطوراً اجبر ملوك العالم على الوقوف ببابه والقيام بخدمته تتناساه عبيده وخدمه بعد موته بايام ، لامر جدير بان يبعث على الاسى والحزن ، فاين الاخلاص ، واين الاخلاق ؟ ولو ان لدى الحجارة قلبا لبكت الماً وحزناً .

واما نحن فاننا لن ننسى امبراطورنا ووصيته وسنطيع ابناءه الامراء كل الطاعة »

وقد اتفق الامراء بعد ذلك على امر واحد وهو كسر الصناجات التي كانت تعلن خبر انتصارات تيمور وفتوحاته العظيمة ، لانها لن تصوت بعد اليوم لاحد غيره .

***

اما الامير خليل فقد تزوج (شادي ملك) الفارسية الحسناء وصار يقضي ايامه في طرب وغناء وحبور ونعيم ، ينظم الشعر ، ويقيم لها الولائم العظيمة ، ويصرف المال جزافاً في مسراته ولهوه ، واخذ يقرب اليه رجالا يتفقون معه في اللهو والمرح ، ويبعد عن مجلسه القواد القدماء من رجال ابيه ، وكذلك كان شأن زوجه الحسناء فقد انصرفت الى اللهو والتبذير وصارت تعمل على تحقير (ساري هانم) زوجة تيمور وكبيرة نسائه .

ولما رجع (بير محمد) من الهند حاول اقتحام سمرقند فلم يوفق

وكسره جنود الامير خليل ، ثم عاد امراء تيمور وجيشه فكروا على العاصمة ثانية واقتحموها وقتلوا زوجة الامير خليل ، وعندئذ تحرك (شاه روك) من مقره في خراسان وافتتح سمرقند ، وجعل ابنه (اولك بك) حاكما عليها ، وقد تمكن (شاه روك) وابنه من المحافظة على مملكة تيمور من الهند الى العراق ، ونشطت العمارة والحضارة في ايامهما واستبحر العمران ، وتغذت التجارة ، وامتد السلام على الامبراطورية ، لان (شاه روك) كان محباً للسلام بعيداً عن الحرب الا ان يكره عليها ·

وفي ايامهما نبغ كثير من المصورين الفرس والشعراء ، وكان لاصحاب الفنون والقرائح كل تأييد منهما وسماح وكرم كثير ، وكان (اولك بك) ابن شاه روك عالماً فلكياً كبيراً ، وشاعراً موفقاً وهو الذي انشأ المرصد العظيم في سمرقند ، وكان يصرف كثيراً من وقته في دراسة العلوم الطبيعية والفلكية ·

وبعض المؤرخين يسمونه (تيموريدس) وقد كان في الواقع اعلم ملوك عصره واشهرهم على الاطلاق ·

وطالت مدة حكم الوالد والولد ، واصبحت سمرقند (رومية الشرق) ولكن الحروب الداخلية بعد وفاه تيمور اضرت بطرق التجارة العالمية التي كانت تمر بارضها ، فتحولت عنها الى سواها ، فاصبحت سمرقند بعد سنوات بلداً منقطعاً لا يقصده الا راغب في

زيارته ، وهو امر لم يكن ليقع الا نادراً لبعد هذه المدينة وقيامها على الحدود الصينية في الشرق الاقصى .

***

وتمضي السنون فتنهار القصور التي شادها تيمور ولا يبقى من آثاره ما يشهد بعظمته ، وكأن القوم ما كانوا ، وكذلك الامر في الادآب التتارية فان شيئاً منها لم يترجم ولا يعرف العالم عنها امراً يذكر .

اما حفدة (شاه روك وابنه) فقد نزلوا بعد ذلك الى الهند فاسسوا المملكة المغولية الكبرى فيها لما تقلص سلطانهم في بلاد فارس واضطروا الى الحرب امام فاتح جديد .

***

والواقع ان فتوحات تيمور قد اثرت على التاريخ الاوروبي كل التأثير ، فقد فتحت طريق المواصلات بين الشرق والغرب ، وجعلت من تبريز بلداً تجارياً يقصده تجار الغرب للتجارة والمبادلة بدلا من بغداد التي كانت بعيدة عنهم ، ولكن الحلم الذي فكر به تيمور لم يتحقق فقد كان يريد ان يعيد مملكة جنكيز خان الى عالم الوجود ، وكان سبيله في انشاء هذه المملكة الحرب والهدم ، وضم ما يستطيعه من الممالك والمدن الى سلطانه ، وهو امر يحتاج نجاحه وتحقيقه الى عدة امور اهمها توفر رجال من طراز تيمور وعبقريته

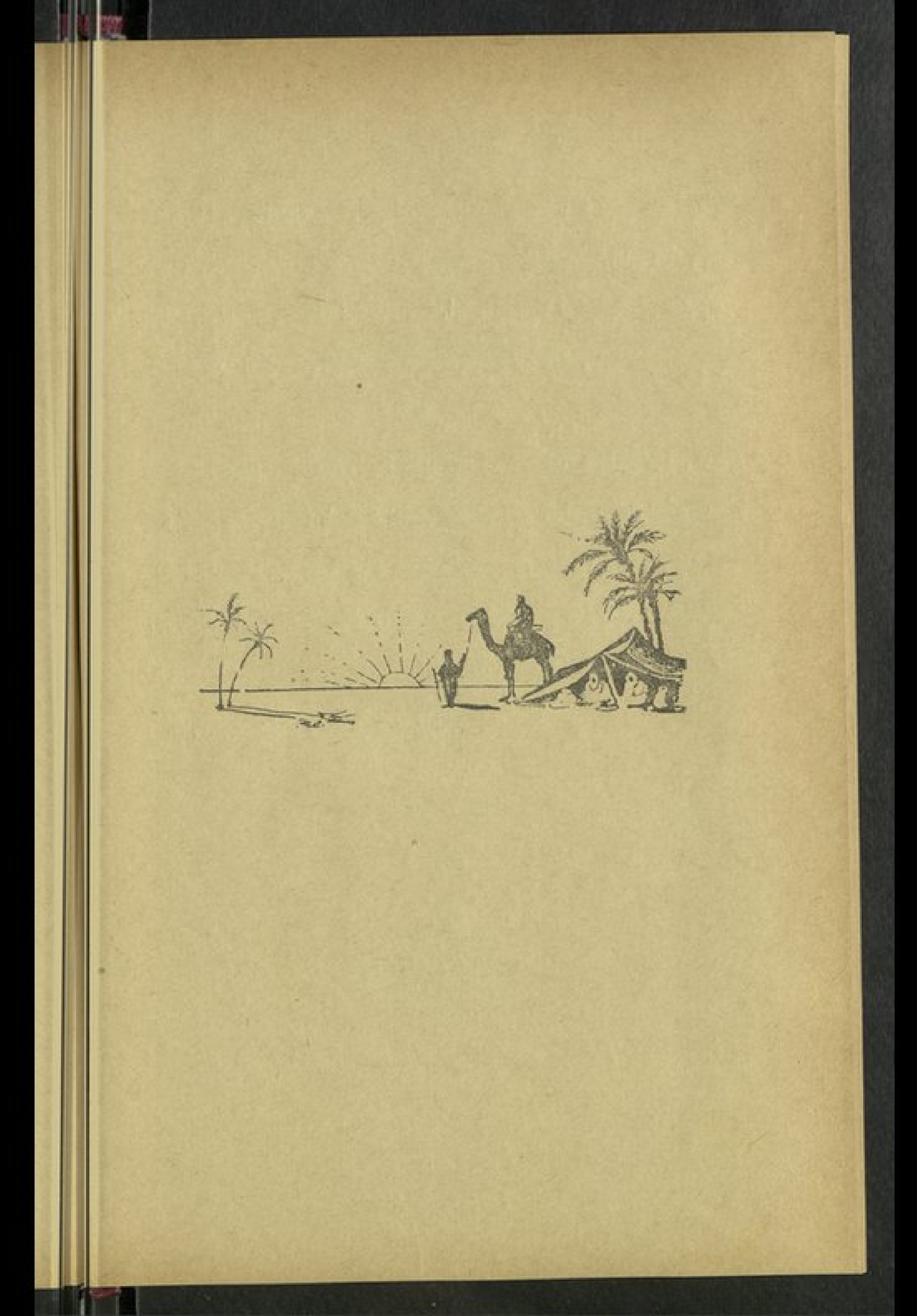
وقوة بطشه وسلطانه ، يقوم واحدهم بعد الاخر باكمال ما بدأ به سلفه ، والاحسان فيه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وهذا شيء ليس بالطوق ولا بالامكان ، لان العبقريات المتعددة لا تظهر في فترة واحدة من الزمن ، وانما هي عمل اجيال ، وصنع قرون .

...

اما قبر تيمور فموجود ليومنا هذا في سمرقند ، واذا ما اراد سائح ان يمشي الى زيارته ، فانه واجد على بابه اقواماً توفروا لخدمته والعناية به ، فان راح يسألهم عن شأن تيمور ، وسلطانه وتاريخه ، فقد لا يسمع منهم خيراً كثيراً ، وقد يكتفي احدهم بالجواب قائلا :

— ان تيمور ملك عاش قبل زماننا بمئات السنين ، ولكنه كان رجلا عظيما وملكا فريداً .





الامبراطورية المغولية

جنكيزخان وخلفاؤه

١

رأى مترجم هذا الكتاب ان يتناول بالبحث تطور الامبراطورية المغولية واستبحار سلطانها ، واستطارة شأنها ، وذيوع فتوحاتها ، ليكون بميسور القاري، بعد ان ساير تاريخ تيمور وفتوحاته وحوادثه ان يلم بتاريخ الامم التي سبقته ، والملوك التي انتظم لهم الملك من بعده ، فلا يخرج من هذا الكتاب الا وعنده فكرة تاريخية كاملة ، عن هذه الامبراطورية العظيمة وشأنها في تاريخ العالم عامة ، والشرق خاصة .

***

وخطورة هذا البحث عظيمة جداً لانها تتناول تاريخ هذه الجماعات التي لم تغمرها الثقافة والحضارة الا بمقدار ، والتي نزلت على العالم المتمدن في عصرها من شرقي وغربي فنالت من حضارته واثرت في تاريخه ومصايره ، وما تولت عنه الا بعد ان نكبته بشيء غير قليل في سلطانه وعمرانه . وهي كذلك اخر غزوات هذه الامم على العالم

القديم والحديث ، وقد تعودنا في تاريخ العمران ان نرى كثيراً من مثال هذه الغزوات البربرية تقتحم العالم المتحضر في عصرها فتتولاه بالهدم والنهب والسلب ، ولا تخرج عنه الا وهو ممزق القلب دامي الاطراف ، منهار الروحية ، مضطرب العمران .

ومن الغريب حقاً ان نشاهد في تاريخ العالم غير ظاهرة واحدة من تقدم الجماعات المتحضرة والبربرية جنباً الى جنب ، فكلما فشا العمران في بلد من البلاد ، انتظم شأن البرابرة القريبين منه ، فزادوا قوة وعدداً وعُدداً ، وهم وان لم يبلغوا شأن الامم المتحضرة في العلم والثقافة والحضارة الا انهم كانوا يتقدمون ويتحضرون وفاقاً لمواطنهم وازيائهم وعاداتهم وما هم بحاجة اليه من اسلحة وجرأة وقوة .

وهجوم المغول — وهم من اصل تركي — على العالم في القرن الثالث عشر للميلاد من اعظم مظاهر هذه الغزوات البربرية ، وابعدها اثراً في تاريخ العمران والحضارة ، ونحمد الله انه الاخير من نوعها وان العالم لن يشاهد بعد اليوم مثل هذه الغزوات التي كانت تمعن في عمران زمانها محقاً وهدماً .

***

ظهر المغول فجأة في اواخر القرن الثاني عشر للميلاد في ما نستطيع ان نسميه من العدم ، وقد ظهروا اولا في البلاد الواقعة شمالي

الصين والتي ظهر منها جماعات (الهان) والترك قبلهم ، واتحدوا في اول الامر تحت زعامة احد كبارهم ولم يستفحل امرهم الا تحت حكم ابنه جنكيز خان .

و كانت البلاد الاسلامية في هذا العهد قد انقسمت فرقاً وشيعاً وامارات مختلفة وممالك متعددة ، فكان هناك مصر وفلسطين وسورية تحت حكم خلفاء صلاح الدين ، وهناك السلجوقيون في آسيا الصغرى ، وهناك خلافة عباسية في بغداد ، وهناك الامبراطورية التركية — وهي غير العثمانيين — ويسمونها الامبراطورية الخوارزمية وملوكها من الامراء الاتراك في كيفا ، وكانت تحكم بعض البلاد السلجوقية وامتدت شوكتها من نهر الكنج في الهند الى جهات ما بين النهرين وان كانت الهند وفارس غير منتظمتين تماماً تحت حكمها وسلطانها

اما الامبراطورية الصينية فكان امرها ضعيفاً ، وحالتها مضطربة غير منتظمة ، وفي القرن العاشر للميلاد انقسمت هذه الامبراطورية الى ممالك صغيرة استقل كل امير او قائد بما استطاع ضمه اليه من بلاد وامصار . ثم تغلبت الوحدة على التفرقة والانقسام فاذا آذنت شمس القرن الثالث عشر بشروق كان امامنا في الصين عائلة سانغ التي كانت تحكم جنوبي الصين وفي الشمال الغربي منها قامت امبراطورية من التتار ، وفي الشمال عائلة كين ، ولكن البداوة والبربرية كانت تغمر كل هذه الامم والجماعات التي كانت

تنتظر فاتحاً قوياً تسير خلف لوائه الى اين يشاء ويريد

اما الهند فكان في دلهي دولة اسلامية ، وهذه هي الحالة في آسيا لما قام جنكيزخان يوحد جماعاته ويضم اطرافه ، ويستوثق من قوته بين قبائله التي كانت لا تزال على البداوة والفطرة .



ولقد ادهشت فتوحات جنكيز خان العالم كله ، ولكن دهشة رجال المغول كانت اعظم وادهش ، ذلك ان هؤلاء كانوا قوماً يأتمرون بأمر عائلة كين الحاكمة في الصين ، وكانوا بدواً يعيشون في الخيم ، ويتغذون بالحليب واللحم ، يرعون الماشية ويعيشون من الصيد والقنص ، فاذا انقضى الشتاء تقدموا الى الشمال طلباً للمرعى والكلاء ، واذا كثر الثلج ذهبوا جنوباً كعادة البدو في كل زمان ومكان .

وكانت عائلة كين تحكم نصف الصين ، وفي الغزوات الفردية التي كانت تقع بين هذه القبائل وجنود هذه الامبراطورية تعلمت هذه القبائل البدوية كثيراً من امور الحرب ، وتعرفت على الوان السلاح المستعمل في عهدها ، حتى اذا اشرق القرن الثالث عشر عليهم كانوا قوماً اولي بأس شديد ومضاء في الحرب والغزو ، فلما قام

جنكيز فيهم اخذ يتوفر على تنمية هذه القوة الحربية بين قومه ، ثم اخذ يعمل على توحيد صفوفهم ليؤلفوا جيشا واحداً فلما استقام له ذلك هاجم عائلة كين واستولى على عاصمتها بكين سنة (١٢١٤).

وفي الوقت الذي كان جنكيز يحارب عائلة كين في الصين بعث رسلا الى ملك الامبراطورية الخوارزمية التي كانت تمتد حدودها حتى الهند ، فاعدم هذا الرسل ، وهو امر يدل على ضعف النظر وابى الاعتراف بسلطة جنكيز ، فما كان من هذا الا ان جمع جموعه وزحف بهم على هذه الامبراطورية فاقتحمها واستولى على سمرقند عاصمتها ، وسقطت امام جنده كل مدنها ، (كشغر ، كوكند ، وبخارى) — وهي بلاد ما وراء النهر كما قدمنا في الفصول السابقة — ثم تقدمت هذه الجموع المغولية غرباً الى جهات كياف بالقرب من البحر الاسود في البلاد الروسية نفسها حيث اصطدمت مع قوة روسية فهزمتها واخذت قائدها الدوق اسيراً ، فاهتز العالم لهذا الزحف ، واخذ امبراطور القسطنطينية يستعد لتحصين حدوده وتدريب جنده ولكن جنكيز لم يتقدم الى جهات البلقان ، مكتفيا بهذه الامبراطورية الواسعة التي كانت تمتد من البحر الباسيفيكي الى حدود البحر الاسود ، ثم توفي جنكيز سنة ١٢٢٧

* * *

ولقد قامت هذه الامبراطورية على الجيش نفسه ، وعلى مناعته

وقوته ، فكان حقا ان تظل ما ظل هذا الجيش قويا كثير العدد ، وقد وفقت هذه المملكة بوزير تمكن من المحافظة عليها من الانقسام بعد وفاة جنكيز ويدعى (بليوشوتسي) ، اما خليفة جنكيز على العرش فكان ابنه (اوجادي خان) وفي عهده تمكن المغول من القضاء على امبراطورية عائلة كين في الصين (١٢٣٤) ثم زحفت جموع المغول الى روسيا (١٢٣٤) وهو زحف غريب هائل حقاً ، فهدموا (كياف) واصبحت اكثر البلاد الروسية في قبضتهم يدفع لهم امراؤها وحكامها الجزية ، ثم سارت هذه الجماعات الى بولونيا فاستولت عليها ، و كسروا جيشاً قوياً من البولونيين والالمان سنة ١٢٤١ واستولوا على بلاد المجر ، والواقع ان الفن العسكري عند هذه الجماعات كان جديراً بالتقدير والاعجاب ، لانه مما لا يقبله العقل ان يكون هؤلاء المغول قد تمكنوا من الغلبة على هذه البلاد السحيقة البعيدة عن مراكزهم ومواطنهم بقوة العدد فحسب!!!

والواقع ان الادارة العسكرية عند قواد المغول كانت تبعث على الاعجاب ، ولم يكن في عهدهم دولة اوربية تستطيع ان تقاومهم ولا قائد يستطيع ان يبلغ مبلغ قوادهم في تنظيم الجيش ، ومعرفة الفن الحربي ، ونزيد على ذلك ان فريدريك الثاني نفسه ملك المانيا لم يكن والحق يقال الا تلميذاً في فنون الحرب امام قائدهم (سابوتي) كما ان هذا الجيش المغولي لم يتقدم زاحفاً على البلاد الاوروبية الا

وهو على مثل اليقين من قوة الممالك والقواد والجنود التي كان يحاربها ، وهذا يدل على انه كان لقواد المغول عيون في كل هذه البلاد تنقل لهم الاخبار ، وتدلهم على مواطن الضعف عند كل عدو

اما عدد الجيش فيقدرهم بعضهم بمئة وخمسين الف نسمة ، وهو عدد عظيم اذا قيس بوعورة الطرق في تلك الايام ، وصعوبة المسالك وبعد الشقة ٠

وفي سنة (٢١٤١) توفي الامبراطور (اوجادي) وعادت جموع المغول الى مواطنها فتنفست اوروبا الصعداء وعدت ذلك نعمة كبرى ٠

وقد قام بالامر بعد اوجادي ابنه (كوبوك) (١٢٤٢) ثم مونجوك الذي توفي سنة ١٢٦٤ فقام بعده (قبالي خان) الذي جعل عاصمته بكين ، وفي ايامه زحف شقيقه هلا كو على العراق والبلاد العربية واقتحم بغداد ودمرها وقتل سكانها ٠

و كان قبالي قد تأثر بالعقلية الصينية فجعل عاصمته (بكين) مقر عائلة كين القديمة التي قضى عليها المغول ، وترك بلاد ما وراء النهر وفارس وسوريا واسيا الصغرى لشقيقه هلا كو يحكمها مستقلا و كذلك استقل جماعات المغول في روسيا وتر كستان

وفي سنة ١٢٩٤ توفي قبالى وبوفاته سقطت زعامة (الخان) فلم يعد يعترف بها احد من الاشقاء والانسباء من المغول ، وانقسمت

الامبراطورية الى ممالك متفرقـة ، خصوصاً بعد ان ردت قوات سلطان مصر جيشاً مغوليا بقيادة احـد رجال هلاكو في فلسطين وكسرته شر كسرة (١٢٦٠) وبـذلك توقف زحف المغول ، واخذت شوكتهم تضعف وتضمحل .



ولكن هذه الفتوحات المغولية تبعث على الدهشة ، وليست تقاس فتوحات الاسكندر الكبير بشيء امامها ، ومما يجمل بنا ذكره ان هذه الفتوحات قد نفعت التجارة العالمية كل النفع ، فانها بتوحيدها هذه الممالك المختلفة قد ساعدت على نشاط التجارة وانتقال القوافل من مكان الى آخر دونما عائق . حتى صارت (كاراكروم) وهي مدينة المغول الاولى مدينة يقصدها التجار من جميع انحاء العالم المعروف ، اما البابوية فقد اخذت تعقد الآمال على تنصير هؤلاء الوثنيين ، خصوصا وقد رأت في المغول تساهلا ظاهراً مع المسيحيين وغير المسيحيين ، ولكن الوفد الذي ارسلته البابوية لتبشير هؤلاء المغول قد فشل تماما ، ولعل سبب ذلك ان هؤلاء راحوا يضعون بين تعاليمهم فكرة الايمان بالسيد المسيح ، والاعتراف بسلطة البابا وهو امر لم يكن يتفق مع العقلية المغولية في ذلك الحين .

ولقد اشرنا الى تغلب الذهنية الصينية والعـادات الصينية على

المغول حكام الصين ، حتى ان التواريخ الصينية نفسها اخذت تتحدث عن كبالي خان كملك صيني ، و كوشس عائلة يوان (١٢٨٠ — ١٣٦٨) ثم تمكنت عائلة وطنية من التغلب على المغول ، وجلست مكانهم واسم هذه العائلة عائلة (مينك) (١٣٦٨ — ١٦٤٤) وهؤلاء تغلبت عليهم عائلة ثانية تنتمي الى « المانشو » وهم جماعة من سكان الشمال ، فحلت مكانهم وظلت في دست الحكم حتى الثورة الوطنية في الصين سنة ١٩١٢ .

٤

وبانهيار سلطان المغول في الصين رجع هؤلاء الى حياتهم البدوية السالفة التي انتشلهم منها جنكيز خان .

اما المغول سكان « كيبتشاك » وتركستان وهي البلاد الواقعة في قلب البلاد الروسية ، وقد اشرنا الى محاربة تيمور لهم في الفصل الثالث عشر ، فقد ظلوا على بداوتهم يرعون الماشية ويعيشون بين الثلوج في سيبيريا وجنوبي روسيا وغربي آسيا المجاورة للبلاد الروسية . وعاش في جهات اوكرانيا جماعة من السلاف والمغول حياة بداوة ايضا ، وكانوا يقفون احيانا في وجه التقدم التتاري ومنهم الكوزاك وغيرهم .

وكان الخان حاكم «كيبتشاك» يضم الى مملكته كياف وما حولها وكان الامراء الروس يدفعون له الجزية ، حتى تمكن تيمور من اقتحام عاصمته ساري وضمها الى امبراطوريته المغولية الجديدة . وقد اشرنا الى ذلك في الفصل الذي عقدناه عن زحف تيمور على البلاد الروسية .



الدين والحضارة قبل تيمور وبعده!

— الاسلام في بلاد المغول —

كان الاسلام في هذه الفترة يغوي العائلات الايرانية والتركية فتسرع الى تقبله والقيام بشعائره ، واما المسيحية فكانت في تأخر مستمر ، خصوصاً بعد ما نزل في مواطنها في (الممالك) «وبنتابوليس» حيث كانت تقوم مراكزها الروحية الشهيرة في الشرق من تدهور واضمحلال . كما اخذ يقل وجود العنصر المسيحي بين افراد الجيش المغولي .

ويعزى سبب تأخر المسيحية في الشرق وبين الترك الى تطرف الكنيسة اللاتينية ، خصوصاً وان الكاثوليكية في نظر الترك والمغوليين كانت ديانة اجنبية ، فان المغولي الذي كان يتقبل المسيحية كان يعتبر شخصاً خارجاً عن وطنه وقوميته وكان في ذلك غريباً عن قومه وبلاده .

ولقد تمكن الراهب الفرنسيسكاني جان دي مونتيكورفين من الوصول الى الصين في اواخر سنة ١٢٩٢ في عهد الامبراطور كبالي خان ، وقد نجح هذا الراهب نجاحاً عظيماً ، حمل البابا كلمنت

الخامس ان يمده بسبعة رهبان آخرين وان يسيمه مطراناً على الصين، وفي سنة ١٣١٢ ارسل البابا كلمنت الخامس ثلاثة رهبان ايضاً ليكونوا بمعية المطران جان دي مونتو كورفين الذي اصبح رأس المسيحية في بلاد الصين، و كان مقره في العاصمة بكين.

ولما توفي المطران جان سنة ١٣٣٣ قام مكانه راهب فرنسي يدعى نقولاس ، و كان استاذاً لعلم اللاهوت في جامعة باريس، وفي سنة ١٣٣٨ ذهبت بعثة من الفرنسيسكان الى الصين واخذت مقامها في جهات «ايلي» وفي المواطن التي كانت النسطورية مسيطرة عليها، مما اثار بعض الانقسام وسوء التفاهم بين النسطوريين ورجال الدين الكاثوليكي فكان هذا — مع سقوط الامبراطورية المغولية وقيام دولة صينية وطنية مقامها سنة ١٣٦٨ — من الاسباب التي عملت على انهيار المسيحية بين الصينيين ، وعدم تمكنها من التأثير عليهم ، خصوصاً وان الصينيين بعد سقوط المغول اخذوا يعدون المسيحية مذهباً جاء البلاد بواسطة حكامها السابقين ، فاخذوا يحاربونه كما حاربوا المغول انفسهم ، حتى لم يبق للمسيحية اثر بينهم.

ولقد حاول البابا سنة ١٣٧١ ان يرسل مندوباً من قبله ليكون مطراناً على الصين ، ومعه اثنا عشر راهباً فاختفت آثارهم ولا يعلم العالم عن مصيرهم شيئاً ، كما ان مطران «زيتون» جامس الفلورانسي قتل ورجاله سنة ١٣٦٢

وفي الوقت الذي كانت تضمحل فيه المسيحية في الشرق الاقصى كان الاسلام يتقدم رويداً رويداً ، وتكثر اتباعه ، ويزداد شأنه ، ويتبسط سلطانه ، وقد زاد في قوته وتبسطه ما فيه من طواعية للتفاهم مع الامم المختلفة ، فلذلك نراه بدويا في بلاد كيتشاك ، صوفياً في بلاد ما وراء النهر ، سياسياً وادبياً في فارس وما حولها من بلاد وامصار .

هذا الاسلام الذي يظنه البعض ، او يعتقد فيه الناس المحافظة والتشدد ، كان اكثر المذاهب الدينية طواعية وتكيفا مع المغوليين في آسيا ، فراح يساير هؤلاء الاقوام ويكيف نفسه وفاقا لمنازعهم وذهنيتهم دون ان يضر ذلك كثيراً بعقائده الاساسية وشعائره واركانه الخمسة .

وبذلك تمكن الاسلام من غزو البلاد المغولية والتتارية فآمن به امراؤها وحكامها وسكانها ، وما يزال حتى اليوم دين الاكثرية الكبرى فيها .

***

والواقع انه لما تحول المغول عن المذاهب والتقاليد الصينية ، كما فعل الترك قبلهم راحوا ينصرفون الى الايمان بالدين الاسلامي الذي كان يسيطر في ذلك العهد على بلاد ما وراء النهر والذي كان قد تسلل اليها من فارس وايران ، بواسطة الفتح والتجارة وغير ذلك .

ولم تمض عليهم مئة سنة حتى كانت التقاليد الاسلامية والفلسفة الاسلامية والاداب العربية الاسلامية قد غمرتهم وتوفرت مذاهبها لديهم ، وتملكتهم وغلبت عليهم حتى اصبحت التقاليد الصينية السالفة خيالا عندهم وطللا باليا ليس لها من اثر في حياتهم الخاصة ، وحتى اصبح المغول وهم انسباء الصينيين غرباء عند هؤلاء لا يعرفون عاداتهم ولا يتفهمون الوان الحياة عندهم

ففي القرن الثالث عشر مثلا ، كان الترك في ما وراء النهر وجماعة الكيبتشاك في القوقاس وروسيا ينظرون احيانا الى انسبائهم هؤلاء كجماعة بواسل حملوا لواء المغول في اوائل الفتوحات المغولية التي اقتحمت العالم ، ولكنهم في القرن السادس عشر كانوا برغم ما يعتقدونه من صلة الرحم بينهم وبرغم ما هناك من جامعة اللغة اخذوا ينظرون اليهم بعين المقت والاحتقار لانهم كفار لا يؤمنون بالله ورسوله .

***

ولقد تقبل الترك الاسلام في تركستان وماوراء النهر وبلاد خوارزم كامر واقع لا يحاولون فيه بحثا ولا مناقشة ، امنوا بالله ورسوله ، وتقبلوا هذا الدين بطيبة خاطر ، فكانوا من اكبر المؤيدين له والعاملين على نشره في ماجاورهم من بلاد وجماعات وامصار

وليس من شك في ان الحياة الروحية عند الترك بعد ان تقبلوا

الاسلام ديناً اصبحت رفيعة جميلة ، خلصت من الوثنية للصينية ، والمادية الشرقية القديمة ، كما نشطت المعارف والعلوم الدينية والفلسفية والادبية التي اخذ يستمدها الترك من العرب بواسطة علمائهم ورجال دينهم خصوصاً وقد كان لرجال الدين الترك من السيطرة على العامة في ذلك العهد ، الاثر البعيد القوي في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية ايضاً .

* * *

ومن الحق ان نذكر ايضا الاثر العظيم الذي تركه تيمور في الحياة الاجتماعية والوان الحياة من بعده فقد كان تيمور كما قدمنا ملكا يشجع الفنون الجميلة ويعمل على تزيين القصور والمساجد بالقدر الذي كان يستطيع الفن في عهده ان يقوم بذلك ، كما انه جلب معه في فتوحاته كل الصناع والفنانين الذين كان يعثر عليهم حتى لقد ضاقت المنازل في سمرقند عن ابوائهم ، فراحوا يفترشون الارض في الحدائق العامة ، وبين الاشجار وعلى ضفاف الانهر .

ولكن بقاء هذه الحضارة على الايام لم يكن امراً هيناً الا ان يكون هناك ملوك تؤيدها وتغذيها وتدفعها الى الاحسان ، وهذا لم يكن بالمقدور ولا بالامكان ، فكان من اثر ذلك ان اخذت هذه النهضة الفنية الاجتماعية بالاضمحلال رويداً رويداً .

***

وفي سنة (١٤٥٠) تمكن رجال الدين من الاستعاضة عن الحروف النسطورية التي اخذها الترك قبلا عن بعض المبشرين النسطوريين بحروف عربية ، فاصبحت الحروف العربية بعد هذا العهد تستعمل في كل الاثار الادبية والدينية التي كانت تنتشر بين الناس في بلاد الترك ، وقد ساعد استعمال هذه الحروف حتماً على انتشار الكتب العربية ودراستها وبحثها وترجمتها ، وكان لهذا كبير اثر في استبحار الفنون الادبية العربية في هذه الاصقاع النائية .



امبراطورية تقوم على الدم

ومن الحق ان نقول ان تيموراً في الواقع شخصية خرجت على غير مثال ونظام وقياس ، شديد الدهاء ، كثير الجرأة ، عظيم الطغيان ، عبقري في فنون الحرب والمخاتلة والماكرة ، موفور الذكاء سديد الرأى ، الى ما كان ينعم به من معرفة تامة بقوة خصومه وعدد جندهم ، وما كان يحاوله من بث العيون في مختلف مواطن خصومه يتعرفون له احوالهم وامورهم وشأنهم وسلطانهم واخبارهم ووحدتهم وضعفهم وتفرقهم ، بما يمكنه من الغلبة عليهم ومعرفة مواطن الضعف فيهم ، فان مشى اليهم مشى الى قوم يعرف من امورهم ما لا يعرفونه من امره وشأنه ، وهو ما كان يحمل بعض خصومه على مقاومته ظناً منهم انهم واصلون الى البطش به وبرجاله ناجحون في تشتيت شمله وتفريق جنده ، جهلا منهم بقوته واغتراراً بضعفهم وتفرق كلمتهم .

***

وليس بطوق المؤرخ ان يجد من الوان الحضارة القائمة على

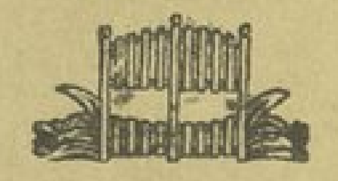
الايام خيراً كثيراً في هذه الامبراطورية المغولية التتارية التي انشأها تيمور وجنكيز من قبله ، فحظ الادب والوان المعارف كان قليلاً في عهد الرجلين ، وفن العمارة كان شيئاً مستعاراً مقلداً ، وكذلك شأن الفنون العلمية فان ما قام منها لا يصح ان يذكر او يشكر اذا استثنينا المرصد الذي أنشيء في سمرقند . واما الفن العسكري فقد بلغ عند الرجلين حداً وشأناً لم يكن في طوق احد من القواد الاوربيين في ذلك العهد ان ينعم بمثله او يتطاول الى بعضه ، حتى لقد رأى بعض نقاد الفنون العسكرية في بعض مواقع الرجلين وقوادهما ما يبعث على الدهشة ، وبحسبك ان بعضهم ذهب يحسب نابليون تلميذاً عندهما ما يساميهما في ما اظهراه من براعة وذكاء وجرأة وفن وحسن تصريف في اقتحام العالم والغلبة على المعمور . . .

***

اما تيمور فقد يستقيم له الخلود بفن من فنون العمارة لم يسبقه احد الى مثله او الى شيء منه ، وذلك في هذه الاهرامات التي كان يقيمها في حروبه من رؤوس اهل المدن التي يمكنه الله من الغلبة عليها وفتحها ، وهي ظاهرة غريبة اذا علمنا ان عدد هذه الرؤوس كان يبلغ في بعض الاحايين الى الستين والسبعين الفاً ، وهذا منتهى الاغراق في سفك الدماء مما ليس في التاريخ ما يماثله او يقابله

ومن البديهي ان امبراطوريـة تقوم بالقوة والبطش وسفك الدماء ، وهدم المدن وحرقها ، وفن العمارات عندها يقوم على الاهرامات من رؤوس القتلى لن تعمر طويلا ، ويكون مصيرها حتما في الدم الذي بدأت به ، والهـدم الذي قامت عليه وهو ما كان مصير امبراطورية تيمور بعد موته بسنوات .

عمر ابو النصر



مصادر الكتاب

دائرة المعارف الانكليزية

التاريخ العام — طبع دائرة المعارف الانكليزية

" " للاستاذ ولس

ابن عربشاه

خطط الشام — محمد كرد علي

دائرة المعارف الافرنسية

تاريخ جودت

تاريخ الاتراك وعهد بيزيد

الفتوحات الاسلامية — زيني زحلان

الحرب الصليبية الاخيرة

وغير ذلك من المصادر الاوربية والعربية والفارسية

فهرس الكتاب

صفحة	الفصل	
٦	مقدمة الكتاب	
٩	تمهيد	
١٥	ما وراء النهر	١
١٩	رجال الخوذة	٢
٢٥	نائب الملك	٣
٢١	الزواج	٤
٣٧	تيمور السياسي	٥
٤١	تيمور المتشرد	٦
٤٦	شيء غير منتظر	٧
٥١	معركة تحت المطر	٨
٥٤	الاميران	٩
٥٩	على سطح العالم	١٠
٦٤	رجال ! !	١١
٦٨	سمرقند !	١٢
٧٣	في قلب البلاد الروسية	١٣
٧٩	معركة فوق الثلوج	١٤

صفحة		فصل
٨٩	في بلاد فارس	١٥
٩٤	الامبراطورية	١٦
١٠٤	الحياة في العاصمة	١٧
١١٢	غزو البلاد السورية	١٨
١١٨	احراق حلب ودمشق	١٩
١٣١	الدم والنار في بغداد	٢٠
١٣٧	الحرب الصليبية الاخيرة	٢١
١٤٤	تيمور والصاعقة	٢٢
	— معركة انقرة —	
١٥٣	على ابواب اوروبا	٢٣
١٦٢	وفاة تيمور	٢٤
١٦٨	انهيار الامبراطورية	٢٥

...

١٧٧ الامبراطورية المغولية
١٨٧ الدين والحضارة قبل تيمور وبعده
١٩٣ امبراطورية تقوم على الدم
١٩٦ مصادر الكتاب
١٩٧ فهرس الكتاب

كتب للمعرب

— الكتب المطبوعة —	طبع سنة
تاريخ سورية ولبنان حتى اول القرن التاسع عشر	١٩٢٦
〃 〃 〃 في القرن التاسع عشر	١٩٢٧
هارون الرشيد	١٩٣٤
تيمورلنك — معرب عن الانكليزية	١٩٣٤
بطل الريف — الامير عبد الكريم — معرب عن الافرنسية	١٩٣٤

***

في دولة الادب والبيان طبعة ثانية

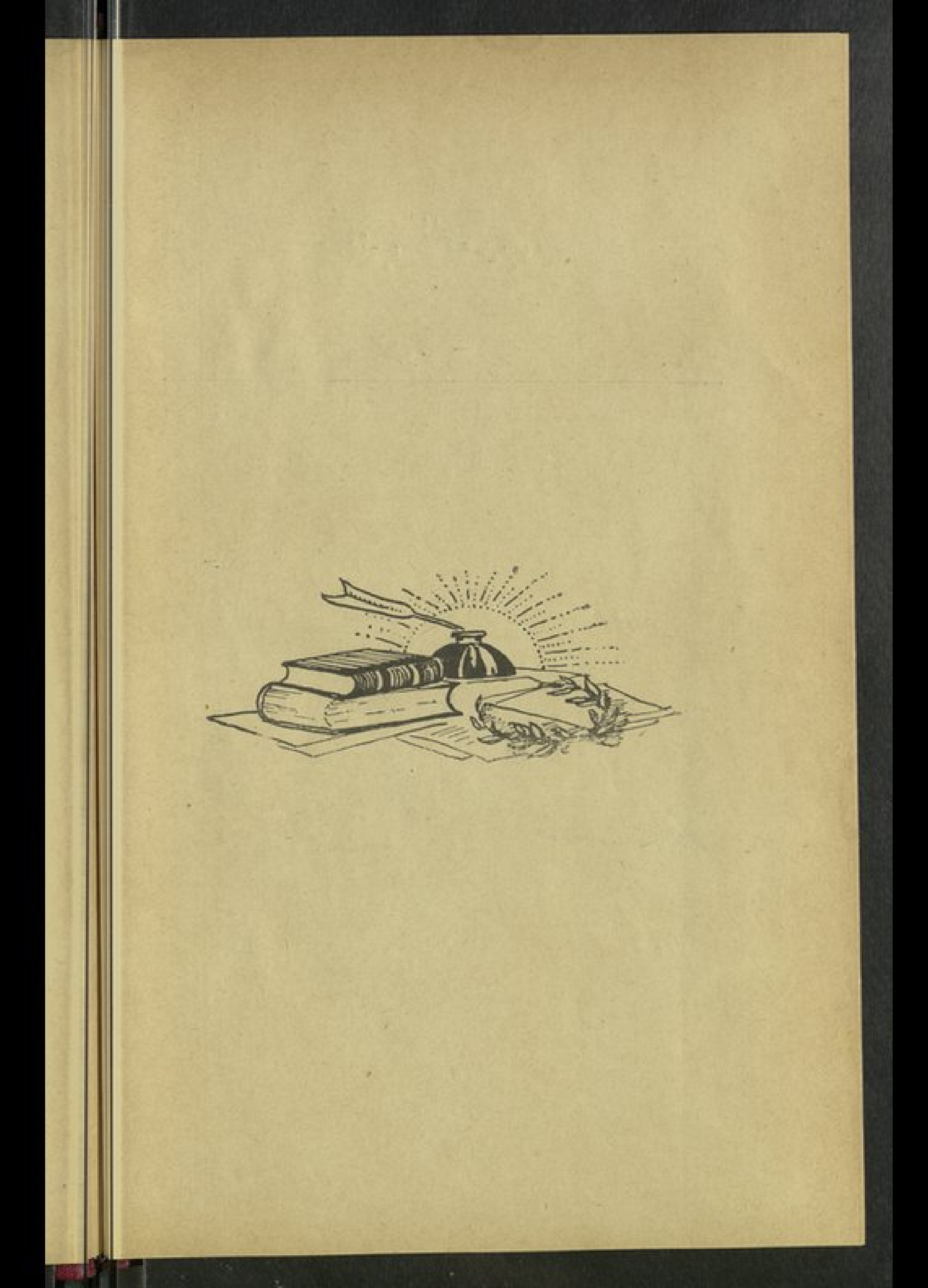
كتاب في النقد والوصف وفنون الادب	١٩٣٣
رجال الجمهورية لبنان (١٩٢٦ — ١٩٣٣)	١٩٣٣

***

حسن — قصة عربية شرقية

مجموعات «البوليس» الروائية

الروايات البوليسية الوطنية



ديوان الفرزدق

الشاعر العربي الذي جمع بين جزالة الجاهلية ودماثة الحضارة
والذي اثارها حرباً عوانا بينه وبين شعراء زمانه

ديوان ذي الرمة

شاعر الدماثة واللطافة والبداوة

ديوان
جميل بثينة

شاعر الحب والجمال والغرام

ديوان

أمية بن أبي الصلت

شاعر الحياة والحكمة واللاهوت في الجاهلية
وصدر الاسلام

ديوان النابغة الذبياني

احد اقطاب الشعر في الجاهلية ، وزعيم من زعماء البيان العربي
في جودة الوصف وبديع المديح
حتى لقد فضله بعضهم على جميع شعراء الجاهلية

كتب تحت الطبع

المحمـديات

وهي سلسلة كتب صغيرة لمشاهير كتاب الغرب ، في سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)

١ – محمد

لاشهر كتاب الانجليز : توماس كارليل

عربه عن الانجليزية :

عمر ابو النصر

---

٢ – ماذا يجب ان تعرف ؟؟

عن محمد والاسلام

للكاتب الافرنسي الشهير : هنري دسون

عربه عن الافرنسية : عمر ابو النصر

---

٣ – محمد نبي العرب

للاستاذ ارثر جيلمان ، من جامعة اكسفورد

« اني احب المسلم ، لانه لايخجل من ربه ويفخر به ، واما حياته فانها شريفة رائعة »

– الجنرال كوردون –

عربه عن الانجليزية – عمر ابو النصر

